القفز من نافذة العالم

مجموعة قصصية

إبراهيم عمّار

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : القفز من نافذة العالم
المؤلف : إبراهيم عمّار
تصنيف الكتاب : مجموعة قصصية
تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٤٦٥١ / ٢٠١٩
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 874 - 0

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى أمي التى علمتني فن الحكي

وإلى روح أبي الذى منحني الوجود

وإلى مازن وملك وصافي ومرفت أسرتي الصغيرة

القفز من نافذة العالم

هى البراح الواسع على امتداد الأفق، إذ تعانق قممُ الهضاب قطعَ السحاب البيضاء المتناثرةعلى صفحة السماء، ترمي بظلالها بطن الوادى فتكتسي شُجيراته القصيرة كثيفة الأوراق مسمارية الشكل بلونها الداكن تارة، ولمعة بريق الشمس تارة أخرى، تحت فتحات أبواب السحاب المتقاطرة .

يتسلل الهواء باردا إلى رئتي من زجاج نافذة العمرالذي يسابق الأسفلت، بينما تتهاوى أعمدة الكهرباء ولافتات الطريق خلفنا، مرات ومرات مررنا من هنا، منذ نعومة الأظافر حتى اخضرار القلب، رحلة أبدية نمر بها ونردد كل تفاصيلها فى يقظة الحلم، كم تمنيت لو توقف العمر بي هنا لحظات، أخطو علي صفحة الرمل الناعس هناك فى سلام، ألوذ بكهف فى صخور الوادي القريب ،أو أرنو إلى تبة عالية فأضرب خيمتي تحت ظل نخلة تدنو علي بطيب ثمرها، فتتفجرمن تحتي عيون الماء.

تحفني طيور القُمري والبلابل وقطعان الماعز والغزلان، متكىء أنا على كومة الرمل الباردة أرتل بيت القصيد، وهى تغزل من خيوط الصوف لى قميصا كقميص يوسف، تعزف أنفاسها الرطبة أنشودة حياة، يأتيني هواها البكر معطرا، ينفث فى الوادي الخصيب نداه، فيذوب القلب شعرا، بينما تترقرق حبات الماء إذ يداعبها نسيم الصبا المعطر بأريجها العذب .

كم حلمت بهذا البراح الذى يحتضن دفء مشاعرنا، بعيدا عن هذا العالم الذى شوهته الصراعات فأصبح فيه الكره قانونا والحب من المحرمات،هكذا قالت لي يوما أو رددت معي أنشودة الحياة .

قالت لي في عيد ميلادنا الأول: تمنيت أن أكون معك فى شبرمن الأرض لم تطأه الأقدام ولم تره العيون، ولا تصله الآثام، فيه تمتزج أنفاسنا، تذوب نظراتنا فى براح الأنا أنت، ولا شيء سوانا، كانت تقول.

هاهي الفرصة سانحة، فقط علينا أن نقفز من نافذة هذا العالم إلى براح الحلم، الحقيقة المطلقة، هى اللحظة المواتية، فقط القرار، أن تنير لنا لحظة الإرادة مصباح الفعل، من يريد القفزلاينظرإلى الخلف، هاهى تتوقف اللافتات والعمدان الكهربائية عن رحلتها، لقد تعطل الزمن فى لحظة خاطفة، فلنقفز الأن، نطير فى البراح كورق الشجر

الأخضر متشابكين، تحملنا هدهدة النسيم إلى صفحة الرمل برفق، نسبح فى بحره الرقراق فتنقش آثار أقدامنا الصغيرة بردية مصرية قديمة، فتخط أسطورة أزلية.

أضمك إلىّ فلا تصبح لفراغات الهواء معنى بيننا، أحملك على راحتى كحملة العرش بين يديه، أطوف بك دوائر عرضية وطولية سبعة أشواط مابين بين، مع انكسار أشعة الشمس القرمزية عند المساء، تتشكل على صفحة الرمل ظلال وارفرة يستظل بها الحمام واليمام والقمري، بينما الغزلان والماعز هناك عند البحيرة العذبة من ماء محيا القبلة المسكرة الأولى فى مهد طفولتنا، فانطبعت على أثر النقش بصفحة الرمل فصارت عينا تهوى إليها أفئدة الناس وأكباد الهائمين منذ عصور، وحين تأوي الطيورأعشاشها، يزحف الليل حثيثا على أطرافه يتحسس هدأة السكون، فأراه يطل من العلا خجلا وأنت على صفحة الرمل بين يدي قمرُ، فكيف به الحال إن خذلته عيون العشاق؟ ولم يُر لضيه من ضيّك أثر.

قالت: تبالغ فيما تصف

قلت :وهل لحروف الكلام أن تبلغ ماتصف.

أضمك إلى أكثر فأكثر وألوذ بعينيك كلما استوحش الليل فأرى نفسي ناعسا وأراك عند البحيرة تغسلين

شعرك، فينداح الليل ويشرق النهار على جبهتك، يرسل للعالم هناك تحت سفح الجبل بعضا من نور قبس يديك، ليعودوا لممارسة عاداتهم اليومية.

أسرعي لنقفز الآن نغادر عالمهم السفلي، إلى عالمنا السرمدي، لاترددي، ها قد تشابكت يدي بكفها فى اللحظة الفارقة أجذبها نحوي بقوة، فقد قررت الأن فورا .....

صرخة مفزعة طمست معالم الصورة فجأة، ومزقت ورقة البردي كخرقة بالية، وقد استيقظت بجانبي كأنها إرتدت قناع الساحرة الشمطاء، كنت تعودتُ عليه سلفا ودائما ما أنساه سالت خيوط لزجة من فتحة مقوسة أسفل الفم تتطاير منه رائحة عطنة وهو يقذف حمما قاطعة وحادة: ألن تنتهي من هذا الجنون الرسمي، آخرتك مستشفى المجانين.

كشفت كلُ العيون التى أطلت من محاجرها عورتي، كانت لاتزال أعمدة الكهرباء واللافتات تتراجع وأنا معها منكمش فى المقعد الخلفي فى السيارة الأجرة، تعلن عن قرب الوصول لنقطة النهاية.

تمت

فى طريق القاهرة السويس

٢٥-١٢-٢٠١٤

زينب الخطاطة

«رحّال وسفرك كثيرياولد»

هكـذا قالتهـا بلكنتهـا العرباويـة منـذ عشرسـنوات، وأنـا أجلـس أمامهـا كعـادتي، ترمـي بنويـات البلـح السـت، وقـد خطـت بسـبابتها اليمنـى عـلى تـراب الأرض طـولا وعرضـا، تحـدد مسـار كل نـواة وتقـرأ كتابـا مـا بـين الخطـين، تنكـس النـواة التـى جـاءت مُدبـرة بثـلاث خبطـات عـلى دبرهـا، بينـما تقبـل النـواة التـى اعتلـت الأخـرى، فهـى النـصرة والفـرج، تحـدد بسـباتها المسـافات وعـدد النقـاط بـين كل نـواة وأخـرى، قـد يعتـلي ذكـر نـواة فـوق ثـلاث، تلمسـه بسـبابتها اليمنـى وتحـدد موقعـه فى الدائـرة وتسـأل، بكلـمات بسـيطة مختـصرة، تبـشر وتنفـر وتسـتعيذ بـالله فى كل خطـوة مـن شـيطان مرتقـب.

تشـعرأنها تقـرأ خطواتـك مـن كتـاب الأرض المنقـوش بنواياتهاالسـت ، لاتدخـل أى بيـت، ويقولـون إن البيـت الـذى

تدخله مبروك، من هنا اكتسبت حب الناس وثقتهم من صدقها وحفظها لأسرارهم وحاجتهم لهتك ستار الغيب رغبتهم فى جرعة الأمل.

كنت وقتها فى السنة الأولى بالجامعة، والتى جاءت طبقا للتنسيق فى محافظتي، فلم أكن أستغرق من الوقت ساعة تقريبا ما بين قريتى الصغيرة المتاخمة للجبل فى أقصى صعيد مصر وجامعة جنوب الوادي، كنت كلما تذكرت كلماتها يداخلني شك كبير فى أنها تمارس نوعا من الدجل، فلو كان كلامها صادقا لكنت الآن فى كلية خارج هذه المحافظة كما كنت أرغب، كتبت فى رغباتي جميع جامعات مصر حتى استنفذتها، وذيلت رغباتى كرها بوجودي هنا، كنت أمنى النفس بقولها حتى جاءني جواب التنسيق، فأيقنت أننى سأموت هنا.

كل يوم أمارس عاداتي وطقوسي الحياتية، ما بين البيت والأرض والمذاكرة وزيارة الأقارب والنوم، كانت فرصة الرحيل والسفر والتغيير، خذلنى مكتب التنسيق وكذبت علي زينب الخطاطة، فقد كانت نبوءتها كفيلة بإقناع أمي برحيل وحيدها إلى مدينة أكبر وأوسع فى بحري، لكنها برغم الثقة الكبيرة التى تحظى بها من كل القرية، خيبت معي، فلم تصدقني، وربما كما يقولون عنها تمارس نوعا

من تجريب الحظ صابت أم خابت، لكنني كثيرا ما أراجع نفسي، فهى من تنبأت لوالدي الذى كان قد بلغ الستين بقدومي، حتى قبل أن يفكر فى زواجه الثانى من والدتي، تلك الفتاة القروية الصغيرة البسيطة ابنة فقي القرية :

«سيكون لك ولد ياحاج حسين من بطن غير البطن»

سمعتُ منها شخصيا أن أبي وعدها بحمل جمل من فول وعدس وقمح يرسله لها فى نجع العكرمي إن صح كلامها، وقد كان،،، فقالت لى : صار يوم مولدك عيدا للنجع فقد أكلوا منه أسبوعا لم ينته.

« كوني له أما وأبا فقد قضي الأمر «

تذكر والدتي وهى تردد قولها بنهاية الأيام السعيدة وانكسار عامود الخيمة وانحناء الظهر فقالت لها توصيها بي وتخفف عنها آلامها، فربما تكون وقع المصيبة أخف لو توقعها الشخص منا، فيكون مستعدا لها ومتوقعا حدوثها فيُسلم بها كواقع محتوم، لكنها تكون أصعب حالا وتأثيرا إذ تأتي خاطفة مفاجئة تسحب الروح وتخلع القلب من مكانه.

لم تخلفنا زينب الخطاطة موسما بعد رحيل أبي، كانت ترى فى زيارتنا واجبا حتى ولو لم تجد ما كانت تحصل عليه بعدما ضاق بالبيت الحال، كانت تقول لأمي :

«بيتكم بيت عز ولو فرغ ماعونه»

تدور فى القرية هنا وهناك، كثيرون من يعتقدون ببركتها، وقدرتها على فهم الغيب، يستأنسون بحديثها ونبوءاتها التى كثيرا ما تصيب، لاتطلب ولا ترفض ما تجود به قلوبهم وأياديهم عليها.

لم نشعر بانقطاع زينب الخطاطة عنا، ربما لانشغالنا، فقد كنت أسابق الزمن من أجل الحصول على الشهادة، بينما كانت والدتي تجهد نفسها كثيرا من أجل توفير الوقت والمال والجهد لي حتى أنتهي من دراستى الجامعية، فأكون عونا لها وقادرا على استرداد حقي فى الميراث المسلوب - لعنة الصعيد الأزلية - بعدما حرمهم وجودي شرعا من ميراث أخيهم، كانوا قد اقتسموا فيما بينهم ميراث الأخ العاقر منذ زمن.

ظهيرة صيف قائظ كانت فيه الشوارع خاوية بينما تتصاعد ألسنة النار من التراب نحو السماء تشاهد ظلها على الحائط، بخار الأرض العطشى، كنت قد تخففت من ملابسي وأنا أستلقي تحت مروحة سقف على حسيرة من السعف تفترش الأرض، لما طرقت بعصاها باب البيت، عرفتها من أول وهلة برغم ما رسمه العمر على وجهها من تاريخ كتمثال فرعوني قديم يقف خلف مسلة تروي

كتاب العمر، دققت فيّ النظر، وهى على ظهر حمارها الضامر، وأنا أتقدم منها.

: أنت إبراهيم

أرحب بها وأمد يدي حتى تستند عليّ وعكازها، وهى تنزل عن حمارها مخضب المؤخرة والذيل، فتقبل ظهر يدي كعادتها ثلاث، ثم تستند عليّ وأنا أحمل تليس[1] حوائجها باليد الأخرى وأدخل الدار، تنادي على أمى التى تخرج مهللة مرحبة بها، تشعر أن الحياة قد عادت من جديد للبيت، تذوب حرارة قيظ الصيف، ويدب فى أمي نشاط غيرعادي فقامت تحضر لها غداء، وماءا بارادا وشايا، وماعونا من سكر وأرز وزيت، بينما تمد يدها فى تليسها فتخرج لي برتقالا ورمانا وبلحا، تمنحني بعضها والباقى فى ماعون أمي، ثم نجلس حولها وهى تقرأ طالعنا

هذه المرة كررت بإلحاح نبوءتها السابقة

« رحال وسفرك كتيرياولد»

فقلت لها ضاحكا :

«ياخالة أنا مزروع فى هذه البلد»

١- هو جوال مصنوع من صوف النعاج

فنكست نواة مدبرة وقالت

: «قسمة ونصيب»

فانخلع قلب أمي وخبطت على صدرها، فقالت لها

لاتخافي ياابنتي فلن يصيبه مكروه، ولكنه كثير التعثر قليل الحظ ،عين تلاحقه وعين تحرصه ظلت كلماتها تتردد فى أذني أياما، ولكنها تلاشت مع مرور الوقت، بل إنني مع مرور العمر نسيتها تماما، وقد تغير الحال فى قريتنا الصغيرة فزاد عدد الناس وتغيرت البيوت الطينية إلى بيوت فخمة ملونة ومزركشة تشرع بلكوناتها فى الشوارع، ويكسو درجاتها وأرضيتها الرخام والسراميك، تسمع صوت أغنية تتر المسلسل الشهير من التليفزيونات التى باتت فى كل البيوت، تتخذ مسافة وأنت تسير تحتها خشية أن تتساقط عليك مياه أجهزة التكييف التى صارت مظهرا من مظاهر الحياة فى قريتنا، التى أطلق عليها المحافظ يوما اسم (القرية النموذجية).

ذبحت أمي سخلة[٢] يوم نجاحي بتقدير مقبول فى الكلية، ووزعت لحمها على الغلابة وأُخرى يوم تعييني فى مدرسة القرية الابتدائية مدرسا، بينما أجّل القاضي الحكم

٢ - أنثى الجدى الصغيرة

فى قضية الأرض للمرة العاشرة، كانت أمي قد باعت آخر قيراط ورثته عن والدها منذ عام يوم زفافي على ابنة أختها، لذا كان أمر السفر للإعارة ضروريا ومن الصعب رفضه رغم إلحاح أمي بعدم تركها ووليدي الذي لم يبلغ أياما فى حضن أمه، توسلت كثيرا، ولكنها وجدت مني فى هذه المرة تصميما مبررا.

« حبال المحاكم فى مصر طويلة، فإن أردت أن تُضيّع حقا فأدخله بين دفاتر القانون فى المحاكم المصرية» هكذا قال لي كاتب المحكمة ناصحا بقبول نصف ميراثي، وبرغم رفضها الشديد لهذا العرض قديما إلا أنها دنت مني يوما وقالت : ربنا يبارك لنا فى القليل

أعلم أنها حيلة الأم التي تخشى فقد وحيدها، ولكنها اليوم فاجأتني، وكأنما ألقت فى حجري قاربا من ورق عاد بي عبر بحر الذكريات لسنوات طوال قد مضت، فقالت لي

:» اذهب لزينب الخطاطة وربنا يقدم ما فيه الخير

:ياااااه بعد كل هذا العمر، آخر مرة طرقت بابنا منذ خمس سنوات تقريبا، ولِمَ لا أذهب لها، إنها أول من تنبأت بالرحيل

لسنوات طويلة وأنا أعتقد كذب ماتقول، وها هو قد صار واقعا، أنا حقا فى حاجة للقائها، سفر بعيد أتخطى

بلادا وبحارا وأعاشر أغرابا، كنت أتوق للرحيل يوما ما، فهل تعودت كحمام البيت على المكوث فى البنّية وأخشى لحظة الطيران

كانت المرة الأولى التى أصعد فيها الجبل حيث تقطن الخالة زينب الخطاطة، لافتة على الطريق الأسفلتي إعتراها الصدأ واعوجاج فى القائم تسبب فى ميلها، ربما بفعل الريح أو صدمة سيارة كبيرة، مكتوب عليها « نجع العكرمي» وسهم فى اتجاه مجموعة من البيوت الطينية الفقيرة تتخللها بعض مباني الأسمنت البسيطة لايزيد ارتفاعها عن دورين تنحدر أسفل الجبل الكبير.

أسلاك تتدلى من أعمدة كهربائية قصيرة تتلوى فى دروب وانحدارات وارتفاعات مع مسار البيوت المتناثرة هنا وهناك، بينما يبسط النخل المرتفع جريده فى محاذاة برج حمام قديم ومئذنة الجامع وقبة ضريح شيخ مجهول، تغوص مقدمة حذائي فى التراب الناعم فى مدق الطريق عن يمينه صبية يشلحون جلابيبهم الصغيرة فتظهر سيقانهم النحيلة السمراء وهى تلاطم الكرة يمينا ويسارا، فترتسم على وجوههم فرحة مطلية بغبارالفقر، وسمرة قيظ الصيف، سألت أحدهم فطالعني بعينين لامعتين يعلوها رموش مغبرة ومعمصة

: «إنت عايز ستي»

من الواضح أن بركات الخالة زينب الخطاطة كانت ولاتزال تلاحقني، فقد تعترث قدمي في حفيدها، دار بي الطفل الصغير دوربا صغيرة ملتوية بين بيوت وأحواش نصعد تارة ونهبط أخرى ،ونحن نقترب من الجبل شيئا فشيئا، رمال الأرض حارقة أحس بوهجها، تتناثر كومات من البوص هنا وهناك، تتعثر قدمي فى بعض روث الحيوانات، كتل طينية كبيرة أعتقد أنها كانت يوما مباني تم هدمها، لايزال الصبي يمشي وكأنه يجرني لقدري،

أهمّ وراءه، وفجأة توقف أمام حوش كبيروأشار لي بالدخول، جدران من الطوب اللبن عريضة غير مكتملة وبعضها مهدم أعلى ارتفاع يحاذي كتفي أو يزيد قليلا، بقايا أعواد الذرة على الأرض، وثلاثة دجاجات وبطة وطلمبة مياة يحوطها حوض كبير، ونخلة معلق بها فلقة نخلة قديمة مشدود عليها سباتة بوص تظلل مصطبة من الطوب اللبن تجلس عليه.

إنها زينب الخطاطة، لازلت أحفظ ملامحها جيدا مهما غيرها الزمن، الذى حفر أودية جافة فى وجهها، وشم بدوي أسفل الفم الذي غابت ملامحه وانحسر للداخل مكان الأسنان التى أتى العمر عليها إلا ناب وضرس

مكسور، عينان غائرتان، وطرحة سوداء مهترئة يظهر من فتحاتها المتعددة بقايا شعر تخضبه حناء قديمة، وذباب يطن هنا وهناك، دنوت منها :كيف حالك ياخالة

لم ترد، كررت كلامي،شعرت بوجودي لكنها لم ترد، فقط رفعت عينيها ببطء ونظرت في اتجاه الصوت، ربما يكون نظرها قد راح فرفعت صوتي : فاكرانى ياخالة زينب ؟

ثبتت نظرها تجاهي وكأنها تتفحص ملامحي

من الخارج جاءني صوتها سيدة عشرينية سمراء ترتدي جلبابا مزركشا بألوان زاهية تلمع فى الشمس:

: إنها لاتسمع، لكنها تعرفك أكيد طالما رفعت نظرها إليك

مددت يدي أسلم عليها، فتشبثت بي يدها الخشنة الممصوصة بعروق جف الدم منها وقد بدا عظم اليد، هنا صاحت السيدة الشابة

: كما قلت لك أنها تعرفك جيدا، اجلس معها بعض الوقت فهى تحب أحبابها

ظلت قابضة على يدي تطالعني وكأنها تراجع عمرها، بينما كنت أحس بنوع من الهدوء لايقضه إلا طنين ذباب يتكاثر حولنا قلت لها بصوت عالي

أنا إبراهيم ياخالة ابن الحاج حسين، فاكراني

كانت تهز رأسها وماء يسيل من جفون ذابلة، وضعت الشابة صينية من النحاس عليها كوب من الشاى شكرتها ووضعت فى يدها بعض الجنيهات ففرحت بها وقالت لي

« اطلب منها أن تدعو لك، دعوتها مستجابة»

نظرت لها كانت عيونها متشبثة بملامحي ويسيل منها ماء لايبلغ الخد الناشف قلت لها

: أنا مسافر ياخالة

شعرت بها تقبض على يدي بشدة، برغم كبر سنها كان عصبها شديد، مامعنى هذا؟ هل له معنى أو إشارة؟

كررت قولي: أنا مسافر إلى الخارج للعمل

مدت يدها لتمسك برأسي وكأنها تقرأ تعويذة، بجوارها لاتزال الست نوايات، سكنت حركتي كتمت أنفاسى لحظات، هى تمسك برأسى قابضة عليها، شعرت بحالة دوار ورغبة فى العودة ،من جيب قميصي أخرجت ورقة نقدية ووضعتها فى يدها، فأمسكت بأطراف يدي ولم تعر نقودي اهتماما، وراحت فى سبات عميق، لحظات مرت، قالت لي السيدة العشرينية: هى على هذه الحالة تغيب وتحضر

شعرت بسخونة الهواء، كان الظل قد ذاب من أشعة الشمس التى ساحت فى كل مكان حتى طالت جلستي، قمت من مكاني بجوارها مستأذنا، فمدت يدها كصقر ينقض على فريسته، وكأنها تحاول أن تبقيني معها، بينما كانت السيدة العشرينية فى دهشة، أمسكت بنواياتها الست وخطت ثلاث خطوط، وألقت بهم، ورفعت عينيها الغائرتين، وهزت رأسها بحركة من اليمين إلى اليسار، وخيط ماء ينساب بين الجفون الغائرة، لحظات كنت قد استخلصت يدي من قبضتها، تاركا ورقة النقود تسقط على الأرض ومضيت، أسير فى المدقات والدروب المتعرجة أتلمس طريق عودتي، وقفت عند اللافتة ذات العمود المعوج أنتظر أى سيارة تقلنى للقرية، تحسست جيبي كان به جواز السفر والتأشيرة، صعدت السيارة الكبوت .

ها أنا فى طريق عودتى أَمر من نفس الطريق أراقب نفس اللافتة ذات العمود المعوج، وقد تلاشت منه الكلمات والألوان وغطاها الصدأ، كنت فى زيارتي الأولى بعد عودتي من العراق خالي الوفاض، جئت هنا لزيادة قبر أمى التى رحلت وأنا فى غربتي ولم تجد من يأخذ فيها العزاء .

تمت

القلعة٢٥-١٠-٢٠٠٠

المؤتمر

استيقظ أهالي قريتي على غيرعادتهم منذ أن دخل الإنترنت قريتنا، وقد تحولت صفحات الفيس وغرف الدردشة والشات إلى ساحات للنقاش الليلي الممتد حتى ارتطام أشعة الشمس بزجاج النوافذ الألمونتال التى زينت واجهات مكعبات ومربعات الأسمنت التى نقطنها

حقيقة إنه يوم غير عادي فى حياة قريتنا، والاستعداد له على قدم وساق منذ أسابيع، ربما لأنني استيقظت متأخرا كعادتي أشعر بغرابة الأمر، الناس فى همة ونشاط، منذ هبوب نسمة الصباح البحرية، كلٌ يعرف واجبه وعمله.

فقد تم توزيع كل المهام والتكليفات فى اجتماع أول أمس بمندرة العمدة حسان، بل ولاعجب لو قلت أن أناس من قريتنا وقرى أخرى مجاورة باتوا ليلتهم فى بعض الأعمال الهامة والتي تحتاج لوقت أكبر فى التجهيز والترتيب.

أصحاب الجرارات الزراعية قاموا بتعبيد الطرق ، بينما قام سائقو سيارات النقل بفرش الطرق المعبدة بالرمل الأصفر الناعم، تغوص فيه أرجل الصبية الصغارالذين بكروا يلعبون ويتمرغون فى الرمل البارد فى هذا الصباح الساخن من أيام بؤنة، عمال المجلس القروي يقومون بوضع قساري كبيرة بها أشجار قصيرة ذات أوراق عريضة .

شاهدت عم عبد المتجلي جارنا فى قطعة الأرض والذى يمتلك سبعة قراريط بور فى الجهة القبلية من الطريق الزراعي، يسعى لبيعهم مباني، قال لى يوما: إن آخر سعر وصل له مليونان ونصف المليون جنيه، لكنه رفض ويبغي المزيد، لأول مرة أعرف أنه موظف فى المجلس القروي عامل نظافة، كان منظره غريبا وهو يرتدي العفريته الزيتية، ويعمل بجد وإخلاص مع عمال المجلس القروي

صاحب الفراشة الذى أتى من المدينة يتابع عماله، الذين باتوا ليلتهم وهم ينصبون عروق الخشب فى مستطيل كبير على مساحة الفسحة أمام المندرة، وبطول الشارع حتى أرض أولاد سعفان أبو الليل، التى تمتدحتى أول طريق الجبانة، كنا صغارا، وهم يحكون لنا عن قصص سعفان أبو الليل أحد المطاريد والذى لزم الجبل

الشرقي سنوات قبل أن ينزل بعياله فى أول سبعينات القرن الماضي، وقد استعان به جد العمدة حسان ليكسر شوكة أبناء عمه المطالبين بدم أبيهم، فمنحه أرضا وبيتا، فتكاثر كذباب أزرق وتمدد فى سنوات الهزيمة، حتى صار نصف القرية أو أكثر.

كانت نصبة الشاي عند مدخل حاصل قديم فى دار العمدة، لاأدرى سببا لهذا الطنين الذى يفرد أمام ناظري كتاب التاريخ والحكايات القديمة، فكلما مررت بمكان وكأننى أكتشف لأول مرة قريتي شوارعها، بيوتها، أشخاصها

تقول الرواية إن الحاصل القديم كانت تخزن فيه أجران الفول والقمح بعد جمعها، لكنه إبان عهد جد العمدة حسان استخدم كسلاحليك للغفراء وتأديب الخارجين، وهو نفس المكان الذى وجدوا فيه سعفان أبو الليل مذبوحا ولم يستدل على الفاعل حتى الحين.

حركة غريبة فى الحوش الغربى التابع لدار مرزوق أبو غباين، الدار مهجورة منذ سنوات بعد أن استقر محمد ابن عم مرزوق بالقاهرة حيث يعمل صحفيا فى جريدة الأهرام، كان باب الحوش مفتوحا مما استدعى النظر، نفرٌ من أهالي القرية أعرفهم جيدا، عم شعبان الجزار وابنه

متولي وابن أخيه حسين ومحروس الحلاق وعاشور التربي، وحجاج أبوزايد الدلال، وأمامهم أكوام اللحم المقطع، و قد أعدوا الحلل الكبيرة مملوءة للنصف بماء يغلي على كانون كبير بعرض مخول البقر والحميروقد تم تمرير ماسورة غاز من أسفله بها شعل متعددة.

يقوم عاشور التربي برمى قطع البصل بعد أن قّشرها حجاج أبوزايد، ثم يقوم محروس بوضع اللحم وتوزيعه بين الحلل، كان حشاش بن حجاج أبو زايد مشغولا بنقل أحشاء الذبائح لبيتهم على حمار يقف أمام عتبة الحوش،جوال مخضب اللون تبظ منه عظمتان فتظهر قطع اللحم التى يخفيها فى أجولة الأحشاء قبل تهريبها للبيت.

انسحبت بهدوء فقد كانوا مشغولين وخشيت أن يكلفني أحدهم بأي عمل، أو يكتشف حشاش أني رأيته، كانت مهمتي فى هذه الليلة محددة كما وزعها علينا العمدة حسان، الوقوف بأفخرالثياب أوعلى حد قوله (ما على الحبل) ونكون فى استقبال ضيوف القرية الكبارعند مدخل المندرة .

فى الشوارع الرئيسية كانت اليفط قد وضعت على حوامل من عروق الخشب الملفوفة بقماش مزين مكتوب عليها بخط جميل ترحيبا بابن القرية وضيوفه الكبار، كانوا قد ارسلوا بها لحليم الخطاط فى القرية المجاورة

ليكتبها، نسيت أن أقول لكم إن كل هذه الاستعدادات فى قريتنا الصغيرة كانت بسبب زيارة سيادة اللواء وزير القوى العاملة الذى رشحه الحزب الحاكم عن دائرتنا.

قد يعتقد القراء أننى أبالغ فيما أقول وأن الحدث شىء عادي لا يستدعي كل هذا السرد، ولكن إن أدركوا ما فى الأمر من أهمية، وما جعله يخرج عن نطاق الانتخابات المعتادة، والتى- فى الغالب - لا تفيدنا بشيء إن نجح فلان أو علان، أن هذه المرة، ولأول مرة، فقد اكتشف نسابو قريتنا، وشيوخها الكبار أنه بعد البحث والتنقيب فى جرود العائلات وأنساب القرية :أن سيادة اللواء الوزيرالضيف المرشح هو ابن عم حسنين أفندي ناظر العزبة التى كانت تتبع قريتنا لزمامها أيام الملك.

دارت فى قريتنا حكاوي كثيرة وكبيرة عن حسنين أفندي وأفضاله على القرية كلها، تروح وتجيء الحكايات والرويات عن الماضي الجميل، زمن أن كان رطل اللحم بقرش صاغ، وقنطار القطن بخمسين قرش، تداخلت الروايات من يعرف ومن لايعرف الكل يرورى ونحن نسمع عن هذا الزمن الذى لم نعشه، كأنه جنة الله فى الأرض ويالينتا كنا ولدنا فى هذا الزمن الجميل الذى كانت تسوده الأخلاق والمحبة والخشا والحياء، كانت كسرة خبز وملح

وفحل بصل أفضل من كيلو لحم، كان الفلاح ينام من المغرب ليستيقظ عند الفجر يرعى أرضه، كان الكبير كبيرا والصغير صغيرا، لم تتلوث أخلاق الناس وضمائرهم، بسبب التليفزيونات والتليفونات والدش والكمبيوتر والإنترنت.

تلك المَدنيّة اللعينة، لِمَ يارب لم تخلقنا فى هذا الزمن،،،

أى ذنب ارتكبناه حتى نعانى فى هذه الأرض، لِمَ لمْ تدخلنا جنتك هذه التى يروون عنها، لكن الغريب فى الأمر أن كل الرويات كانت مخالفة تماما لكل مادرسناه فى الكتب، وأفلام ومسلسلات: رد قلبي والقاهرة٣٠ ،والوسية وجمهورية زفتى، كونه زمنا للظلم والقهرو الاستعباد، وفساد الملك وأعوانه والإقطاع والإقطاعيين.

كتب لى صديقي عبد المقصود الرموزى : أصدقت أفلام عبد الناصر هذه.

اعترض عليه صديقنا اليساري:عبدالناصر من حرّرك وعلمك ومنح أباك الأرض وجعل لك فى بلدك كرامة

رد عليه موسى الطروشي:عبد الناصر مات وترك البلد تعانى الهزيمة والانكسار، وتسلط حفنة من أتباعه فى شئون البلاد

زادت سخونة الحوار الذى امتد لساعات متأخرة من الليل على الشات، وقد حقق (البوست) أعلى نسبة مشاهدة من شباب القرية، فيديوهات لخطب ولقاءات عبد الناصر والسادات، ومقاطع من أفلام ومسلسلات، وأغاني لعبد الحليم، وخطب لكشك، كل فريق يحاول أن يثبت وجهة نظره، ويتفوق على الفريق الآخر متهما إياه بالجهل والتضليل، حتى وصلنا للعمالة والتخوين وكالعادة مع مطلع الفجر انسحبنا واحدا تلو الآخر حتى نخطف من النوم ساعات قليلة قبل الدخول فى معترك هذا اليوم المشهود فى قريتنا الصغيرة.

قرر ناظر المدرسة الابتدائية شوقى أبو مرقة اعتبار اليوم نصف يوم دراسي وصرف الطلاب من الفسحة، حتى يتفرغ مدرسو اللغة العربية والخطابة فى وضع وترتيب خطب وكلمات المؤتمر الكبير، وتجهّز شعراء قريتنا لإلقاء قصائدهم العصماء، كما العادة فى المناسبات الكبرى مثل المولد النبوى وسهرات رمضان، بينما وضعت لافتة كبيرة على سور المدرسة الخارجي للترحيب بابن البلد وأحد تلاميذ المدرسة النابغين، فقد أكد ناظر المدرسة أنه درّس للوزير، وقد كان أول دفعة تخرجت من المدرسة وكان متفوقا ونابغة، وبالرغم من عدم صحة هذه الرواية

بحكم المنطق والتاريخ، إلا أن أحدا فى المدرسة لايستطيع أن يرد لحضرة الناظر رأيا قد أجمعت عليه القرية كلها .

فى الطريق المؤدي للجبل كان فرسان القرية قد نصبو المرماح لتجهيز خيولهم لاستقبال السيد اللواء الوزير وتقديم عرض يظهرون فيه على أنغام المزمار والطبول مهاراتهم منقطعة النظير، وقد حضر الزمارون من المدينة، ومعهم منشد الليلة الشيخ محمد الكلحي، الذى لاتفوته فى قريتنا مناسبة إلا وينشد فينا البردة كاملة وبعض أشعاره، كان يُذكرنى بالشيخ إمام فى هيئته، كان ضريرا، يصطحبه حفيده يدور به فى كل البلاد والنواحي ،يحفظ مواعيد وتواريخ الموالد والمناسبات، وعودة الحجاج، وليالي الذكر والطهور.

قبل أذان الظهر أخذت عجلة ابن أختي وذهبت مسرعا قبل القيلولة لأحضر الجرائد اليومية، فقد كان ذلك من المهام الموكلة إلى فى هذا اليوم بحكم أنني أطالع يوميا كل الجرائد بحثا عن عمل، فقد دفع لى العمدة عشرين جنيها من ميزانية الحفل لاقتناء جميع الجرائد والمجلات التى ستتناول خبر حضور السيد الوزير لقريتنا، فقد وعده محمد ابن عم مرزوق الصحفي الكبير بأنه سيجعل خبر الزيارة فى جميع صحف مصر الصادرة اليوم .

عـدت بعـد أذان الظهـر مـن عنـد عـم عـلي بتـاع الجرائـد التـى وصلـت متأخـرة اليـوم للمدينـة، وتـرددت أنبـاء أن سـبب تأخيرهـا تغيـير حـدث فى حركـة القطـارات بسـبب زيـادة السـيد الوزيـر لقريتنـا، وأكـد آخـرون أنهـم سـمعوا أن سـبب تأخـر طباعـة الجرائـد فى مـصر المحروسـة أصـلا كان بسـبب إدراج خـبر الزيـارة المرتقبـة، بينـما قـال البعـض إن هناك قـرارات مهمـة لم تصـدر بعـد كانـت سـببا فى تأخيرالطباعة، على كل حـال فقـد وصلـت الجرائـد، وقـد وضعـت قريتنـا الصغيرة عـلى الخريطـة وصـارت موضـع اهتـمام وحديـث الجميـع، وكأن العـالم توقـف مـن حولهـا.

: صحيـح يـا ولاد مـن لـه ظهـر فى هـذه البلـد لايـضرب عـلى بطنـه .

هكـذا سـمعتهم يقولـون ويتقولـون أهـالي مـن قريتنـا ومـن قـرى مجـاورة عنـد بائـع الجرائـد، ظللـت أتذكـر وأحلـل كل كلمـة فى طريـق عودتـى لتناول الغـداء الـذى أعده العمـدة لكل شـباب ورجـال القريـة المشـاركين فى الفاعلية الكـبرى، ولاتزال التعليقـات والأسـئلة تنهـال عـلى البوسـت العالـق بصفحتـى

هـل كان ابـن الريـس عبـد الواحـد مـن الممكـن أن يصـير ضابطـا فى الجيـش، وأحـد الموكلـين بتنفيـذ قـرار التأميـم عـلى ممتلـكات الباشـا والـد إنجـي لـولا وسـاطتها لـه؟

لقد دفعها الحب لذلك، لكن هل كان لهذا الحب أن يصل لهذه النهاية؟ لولا تغييرا حدث فى هذا المجتمع فتحول ابن الجناينى إلى صاحب أمر وسلطة، وتزوج بنت الباشا التى أحبته

السؤال الذى لم أجد له إجابة وقد دخلت مشارف القرية:

و من ذا الذى أطلق على الابن الثاني لعبد الواحد الجناينى هذا البطل الجميل، لقب الباشا فى قسم البوليس ؟

: الله يرحم أبوك لم يكن يأكل إلا الضأن

هكذا قالها عم عاشور التربي وهو يدس فى يدي قطعة لحم كبيرة محمرة من الضأن، وهو يوزع منابات اللحم على السفرة الطويلة الممتدة بعرض مندرة العمدة حسان، بينما كان عن يميني العم فراج الدرج والذى تمسك بلية الخروف، ظل يلتهمها وهو يغمسها فى الملاحة المخلوط بها الفلفل الأسود بالملح، ليعطي مذاقا غير عادى للحم الضأن أو ليته.

ذكر تقرير مستشفى قنا العام أن سبب وفاة منسي أبو غبان ارتفاع نسبة الكوليسترول فى الدم بسبب أنه كان مفرطا فى أكل لحم الضأن وتدخين الشيشة، هكذا قال من

حضروا الواقعة، بينما كشفت دراسات غير معلومة المصدر على مؤشر البحث إن لاعلاقة للحم الضأن بارتفاع نسبة الكوليسترول فى الدم، بل هو واحد من أهم وأفضل اللحوم على مستوى العالم، كما جاء فى رد الشيخ أبو مصعب :لو كان لحم الضأن فيه عيب لما نزل به جبريل ليفتدي به إسماعيل، مؤكدا أن لحم الضأن هو طعام أهل الجنة.

أذكر أننى فى تلك الليلة قرأت حوالى سبعين بحثا تم تنزيلهم من مؤشر البحث، لكن كانت تتناقض فى كثير من الأمور مما جعل ردود البوستات مختلفا جدا، لكن ما هو جدير بالملاحظة أن البوست استطاع أن يحصد هذه المرة ألفا وسبعمائة تعليق، وثمانين مشاركة، وألفي إعجاب.

الجميع على الدكك المرصوصة بطول وعرض الفسحة وقد افترشها العمال، بعد أن قاموا بعمل بوابة كبيرة من الزينة أمام مدخل المندرة، وزعت المراوح ذات الأعمدة هنا وهناك، وعُلقت فى عروق خشب الفراشة مراوح سقف أخرى، عناقيد لمبات الزينة والكشافات التى تنتظر المساء، دارت أكواب الشاي والسجائر والجوزة على الحضور لمن يشرب، البعض لايزال يتحدث عن تاريخ عائلة حسنين أفندى، والبعض غط فى نوم القيلولة على هواء المراوح التى تناثرت هنا وهناك.

كان صوت الميكرفون عاليا جدا، وبه زنة مزعجة وقت أن بدأ عم رجب الكهربائي يجربه ثم أطلق أذان العصر، و كان ذلك إيذانا للجميع أن يفيقوا فقد حان الوقت الذى ينتظرونه ويعدون له من أيام، وقد وردت الأخبار أن السيد الوزير والوفد المرافق له، سيكونون بالقرية قبل أذان المغرب.

أصبح الجميع على أهبة الاستعداد، وقد خرج للتو وفدٌ كبير من أكابر القرية يتقدمهم العمدة حسان بكل السيارات الملاكي والأجرة التى بالقرية يسبقهم شباب الخيالة بالقرية والزمارون ليكونوا فى استقبال الضيف الكبير عند مدخل المدينة، وقد علت الهمهمات وارتفع سقف الأمنيات فى قريتنا، وكثرت الأقاويل، عن مفاجآت السيد الوزير لقريتنا التى فهو أحد أبنائها، ولن يبخل عنها بشىء، فمنهم من قال إنه يحمل فى جيبه قرارا بتعيين جميع شباب القرية فى الحكومة، وآخر تحدث أنه سوف يصطحب معه لفيف من الوزراء مثل وزير الصناعة والتموين والداخلية.

إن ما يحدث اليوم فى قريتنا لهو حدث تاريخى، سيغير مجرى حياة البشر على أرض تلك القرية المنسية فى حضن الجبل فى أقصى الجنوب، بات الجميع فى تحفز للقاء، كل من له طلب كتبه، وبيته فى جيبه حتى اللحظة المنتظرة، وقت

أن ينهي خطابه على المنصة ووعده لهم بحل جميع المشاكل، وأنه مستعد لاستقبال أى صاحب شكوى أو مشكلة فى مكتبي، فبيتي ومكتبي مفتوح لكم، هى الجمل التى تعودنا عليها منذ سنوات، من كل الذين تقدموا للترشح فى الانتخابات سابقا، سواء من نجح منهم ومن لم ينجح، لكن هذه المرة مختلفة تماما، إنه ابن حسنين أفندى ابن قريتنا الذى صار وزيرا وجاء يلبي طلبات وخدمات أهله، بل إنه علي بن عبد الواحد الجنايني ومعه الأميرة إنجي

إنها الفرصة الكبرى، حدث لن يتكرر مرة أخرى وعلى الجميع تحقيق أكبر قدر من الاستفادة منه، إن تأشيرة وزير من هؤلاء الوزراء على أى ورقة ستفتح لك أبواب الجنة، فهذا يطلب عملا، وذاك يطلب نقلا، وذا موافقة، وتلك علاجا، وعمرة، وحجا، تعددت الأمنيات والرجاءات، وقد اشتعلت المصابيح هنا وهناك بطول الفسحة وعرضها، وامتداد الشارع المؤدى لها حتى الطريق الرئيسى لمدخل القرية.

ارتدى الرجال أفضل الجلابيب الصوف ولفوا الشال المزهر والعمة، وبعض الشباب و المدرسين والموظفين ممن سيكون لهم دور على المنصة فضلوا أن يلبسوا بدلا وكرفاتات كانوا قد اشتروها منذ أيام من المحافظة.

انزويت فى حجرة صغيرة بالمندرة أرتب الجرائد والمجلات التى كنت قد أحضرتها وأتسلى فيها حتى يصل الحضور، كانت معظم المانشتات تتحدث عن المعركة الانتخابية الطاحنة الذى يخوضها الحزب الحاكم، ومرشحوه من الوزراء ورجال الأعمال، وسط سخط وغضب المعارضة بينما تحدثت بعض المقالات عن ضرب من تحت الحزام لبعض المقاعد، حتى تلك التى يشغلها بعض الوزرء وأتباع النظام لحسابات أخرى، وأن هناك قرارات جديدة للجنة الانتخابات عن توزيع الدوائر.

كان خبر زيارة سيادة الوزير والوفد المرافق لقريتنا موجودا فى أغلب تلك الجرائد فى صفحتها الأخيرة، شعرت بأن وقتا كبيرا قد مر وأنا أقلب فى صفحات الجرائد، فخرجت من المندرة، كان الجميع وقوفا فى انتظارالموكب الذي تأخر كثيرا، جاءت الأخبار متناثرة عن التأخير، ثم التأجيل، ثم الاعتذار، عرفنا بعدها أن قرارات لجنة الانتخابات قد عدلت من وضع دائرة السيد الوزير، فخرجت قريتنا من نطاقها، ولهذا فقد اعتذر السيد الوزير ابن قريتنا الهمام عن الحضور.

تمت

القاهرة٢٠/ ٦/ ٢٠١٤

فَلَكِ

أنْ تُغلقَ أمامك كل الطرق والمنافذ، أن تجدَ فى كل خطوة عفريتا- كما يقولون- فتتحول الحياة إلى مجموعة من الهزائم والانكسارات المتوالية، ما إن تفتح بابا، تجد خلفه ألف باب ومتراس، أو تهم بفعل فتجد له مائة ردة فعل متشعبة الاتجاه.

ما إنْ تقررَ السير فى درب، تُقنع نفسك -عبثا- باختياره، فلاتبرح أن تصل إلى اليقين بسوء الاختيار بعد قليل، لتجد نفسك قد عدت لنقطة الصفر من جديد، تحاول ثانية، تجهد نفسك فى إثبات تهمة التقصير، فتترك للأقدار أن تُسيّر الأمور، فى دروب مظلمة بلا هدف تدخل المتاهة، تتخبط فى سكك وعرة، تتعثر قدمك، تشعر بالدم ساخنا ينفجر كبركان وأنت تهرول محاولا العودة لنفس النقطة، تلعن كل الظروف والأسباب التى جعلتك ذرة فى مهب الريح تتقاذفها أنّى تشاء.

تتكالب عليك الدنيا بمشاكلها وصعابها، دون أن تترك لك فرصة للبوح، تكره حتى مجرد التفكير، الذي يتحول لعصا من نار تُقلّب جمرا تحت رماد الذكريات الموجعة

: ماذا لو ؟

:ولِمَ ؟

:وكيف، ومتى، وأين ؟

فى الغالب لاتصل لشيء، تشك بقدرتك أصلا على التفكير، تحاول جاهدا أن تتلمس فى شخص نصيحة أو مشورة، بإمكانها أن تأخذ بيدك للطريق الصحيح، آخر تشركه معك، دون أن يجلدك على قارعة الطريق عاريا، أو يطيب الخاطر بما لايشفى من سقم، إن من يده فى الماء البارد ليس كمن يمشي على جمر متقد.

كثيرا ما تسمع عن قيراط الحظ الذى يفوق فدان الشطارة، وأنت لاتملك هذا ولا ذاك، هى فقط الأمنيات تراها فى منامات اليقظة، تسرح فيها لحظات خارج الزمن المتاح، تتقمص شخصية، تتوحد معها، تسعى لامتلاك مقوماتها، سويعات تروح وتجيء تُوقن أنك صرتها، يشعر الأخرون بجنونك، تستمر، تخشى أن تستسلم، لكن مع دقات ساعة المجهول تتراجع، لتجد نفسك عند نفس

النقطة اللعينة، فتقف عاجزا عن القدرة، القرار، الاختيار، الفعل أواللافعل، تشك فى كل شيء، فى الذات، الناس، الأهل، الأصدقاء، الأقارب، فى البيئة، المكان، الزمان، فى الحظ، القضاء، القدر، حتى تضعه هو موضوع السؤال.

يأتيك من يهمس : هل ستكفر ياهذا؟

تنطقها بزفرة حارقة، مستغفرا، ولا تجد الإجابة مطلقا

تتساقط سنوات العمر أمام ناظريك، وينطلق المشيب فى الرأس المتصدع، يمتد أمامك كرش طويل يقوس ظهرك، يهمس أطفالُ أصدقاءِ الأمس وهم يلعبون الكرة فى الشارع

: مهلا حتى يعبر العم الطريق

أذكر مقالة أمى ذات الأصول الصعيدية ونصيحتها المتكررة لى دوما، بعدما شاهدت ولمست معي كل هزائمى، ضاقت بها ذرعا، وهى تراني كعود ذرة فارغ كوزه، ذابلة أوراقه تتخطفه الريح

: ياابني اسمع نصيحتي واذهب له معى ، فنحسك لن ينفك إلا إذا انفك العمل، معمول لك بوقف الحال وضيق الرزق وغلق الأبوب وسد النفس، لقد جربتَ كل الطرق كل السبل، فما المانع أن تجرب هذا الطريق، أخشى أن أموت، وأتركك فى هذه الدنيا وحيدا لا يرافقك إلا سوء حظك والطالع.

لاتزال كلماتها فى أذنى، تحاججني كلمة بكلمة ورأي برأي

: أوليس السحر مذكورا فى القرآن ؟ والعمل والفك والربط من قال عنهم سليمان؟

: ياأمي أنا من درست المنطق ومناهج العلم، كيف لي ...

تظهر أمامي مشاهد قنديل أم هاشم، وقد تحطم وسقط الزيت وأمتدت الأيدى والهمهمات واللعنات

فأنحني لأقبل رأسها، وأهرب لغرفتي بعدما ألقي لها بالبشارة كالعادة

:أمامي فرصة جديدة غدا وسوف أحقق فيها مغنمي

أصعد درجات سلم البيت القديم، متساندا على ترابزين خشبى، نسمة هواء صيفية تأتى من شباك المنور الداخلى المطل على بير السلم المعتم أسفل الدرج، هنا كانت أول قبلة، بل أول انتصار بدا لي مبكرا جدا، هنا شعرت معها برجولة وفحولة تستشرف غدى، لمحت فى عينيها لمعة الحياة، وعلى شفتيها السخيتين مذاق الأمل الحلو.

قال أبي لعم حسين وهما يلعبان الشطرنج فى صالة شقته البحرية فى نهار رمضان

: أمنية لصابر

: يوم المنى وهل سأجد أفضل منه لها

أمر على باب شقتها فى الدور الأول، منذ زمن لم أدخل تلك الشقة البحرية، أعرف كل تقاصيلها الداخلية، كل حجرة فيها، المطبخ، الحمام،الطرقة المؤدية لحجرتها، البلكونة التى شهدت ميلاد الوله، وقساري الريحان وزهره الذى تفتح أمامنا يوما بعد يوم، هاقد جفت وسقطت أوراقه وتكسرت عيدانه.

قفل نحاسي قديم على الباب، خيوط عناكب فى أعلى أركان الباب، أذكر يوم وفاة عم حسين التى أعقبت وفاة أبى بسنة تقريبا، ومشهد نقل جهازها لبيت العريس الجاهز الذى وافقت عليه أمها دون تردد، طارت معه إلى بلاد النفط، قالت لى أمي يومها: : سوف أزوجك ست ستها

كانت سمينة بعض الشيء بيضاء كالثلج، تصغرني بأربعة أعوام، لاتجمعني بها أى خيوط إلا رجاء أمي الأخير، بعد ثلاث خطبات فاشلة، وفقد ثمن القيراطين فى مشروع لم يكتمل، لم يكن أمامى إلا الموافقة مسلوب الإرادة، لعلها تكون الخطوة الصحيحة، وفك النحس ،رحمك الله يا أمي

أطالع صورتها على الحائط الذى بهت لونه وكأنها تطل علىّ كعادتها، تربت على كتفي، ربما تشعر بأنها كانت خلف هذه الزيجة التعيسة، أم أنها ترثي لحالي من جديد وتحاول معي.

بعد خناقة طويلة كالعادة حول مصروف البيت وقلة حيلتى، ورفضي السفرمع أخيها للدولة الخليجية، تركت لى البيت ومضت تلعن نحسي ويوم زواجها مني، لاأعرف سببا حقيقيا دفعني لرفض فكرة السفر، لكنه قراري الذي ربما كنت أدرك نتائجه وردة فعلها بعده ، تتهمتني بقلة الحيلة والجبن والنحس والفقر، لطمتهاعلى وجهها قالت : لو كنت رجلا....

فقال لى المحامي حتما سوف تأخذ كل جهاز الشقة، فلم يبق لي إلا الصورة على الحائط، وشنطة تحوي ملابسي، وبعض من أوراق الجرائد القديمة الصفراء تتناثرعلى أرضية الشقة، وصدى صوت مكرفون من بعيد يعلن عن مُولد الشيخ فلالك

مات فلالك ونصبوا له ضريحا فى نهاية الحي كان يقصده الكثيرون، كلما مررت على الضريح تذكرت كلمات أمي فأمضي مبتسما، اليوم يتمدد فى مساحة الصالة الفارغة صوت المكرفون، أشم رائحة البخور التى كانت تطلقها

أمـى مسـاء كل جمعـة، كنـت لا أطيـق البيـت وقتئـذ، وألـوذ مسرعـا لشـقة عـم حسـين.

اليـوم أصـوات الذكـر تعلـو، ضربـات الطبـول تـزداد، الأخـضر يتمـدد فى كل ركـن، نسـوة يقبلـن الضريـح النحـاسي، ورجـال يمسـكون بأعمدتـه يتضرعـون، أدخـل الغرفـة المغلقة، تسـألني السـيدة ذات الوشـم القابعـة أمـام المبخـرة العتيقـة عـن طلبـي، تتعثـر الكلـمات فى حلقـي، أحـاول الانفـلات، تتسـمر قدمـى فى الأرض، وتتحجـر عـلى شـفتي الكلـمات، فتخـرج متقطعـة : أنـا معمـول لى عمـل

تمت

القاهرة٢٥/ ٩/ ٢٠١٠

حسناء

«من الصعب أن تعيش امرأة مطلقة فى هذا المجتمع دون أن تدور حولها الشبهات «

هكذا لخصت لى حسناء مأساتها وما تعانيه فى البيت، ومن الجيران وشباب المنطقة الشعبية التى تقطنها، نظرات زملائها فى العمل، الأصدقاء والأصحاب، الرجال والنساء، لم تسلم من الجميع.

هى دائما موضع اتهام، ومادة للحكي على كل لسان، عيونهم تراقبها فى كل لحظة، تراهم خلفها فى الطريق، فى العمل، فى البيت، حتى إن دخلت الحمام ترى عيونهم تخترق أبوابه وحوائطه لتطالعها، كل حركة، لفتة، ابتسامة، وحتى الحزن محسوب عليها، إن تحدثت أوصمتت إن ضحكت أو حزنت، صاحبت أو خاصمت.

كان ذلك موضع سؤال وإن عرف الجميع مغزاه، دائما هناك من يحلل ويتقول ويأتى بألف إجابة تدور حول محور هذا الجسد الفائر كبركان يتفجر أنوثة ملتهبة يحتاج لهذا الذكر الأوحد الذى يروي عطشه وحرمانه.

كما أن نصيبها وحظها العاثر،جعل من سيرتها مادة خصبة لشهوات ورغبات وأمنيات الرجال، وهم يتحسرون على هذا الجسد الفائر، الذى عجز أمامه ذكره ،فبات شهورا يحاول وتحاول بلافائدة، منهن من قالت إنه تركها بكرا، وبعضهن : بل مزع بكارتها.

فى كل الأحوال لم يدم زواجها ثلاثة شهور، وبرغم سرعة زواجها للمرة الثانية من رجل مطلق فإنه - لحظها العاثر - فلم يمض الكثير من الوقت حتى طلقها لرغبة أولاده وبناته.

ما من شك أنه بمجرد أن تأتي سيرتها فى أى مكتب بالمصلحة أو جلسة بين الموظفين أوالعاملين فهى جلسة تثير فيهم جنون الرغبة وأمنيات الفحولة المصطنعة، أنهم يرونها فريسة سهلة المنال، جاهزة دون عناء، كسرت حاجز الخجل وفضت بكارته من زمن، ولم يعد بينها وبينه حجاب، كل الذكور يخطبون ود جسدها فى المصلحة، بعضهم يحاول معها، ربما فاز بتلك الفريسة السهلة

الجاهـزة، الـكل يطمـع فى جلسـة منفـردة، عزومـة غـداء أو سـهرة عشـاء، بـل منهـم مـن يشـطح خيالـه، فيهمـس بقضائهـا ليلـة معـه فى شـقته، ويـوم أن تغيبـت عـن المصلحـة ثلاثـة أيـام لمرضهـا، قالـوا ربـما هربـت مـع أحـد العشـاق،

كانـت تشـعر دائـما بهمسـاتهم، سـهام عيونهـم التـى تخـترق جسـدها تعـودت عـلي ذلـك منـذ زمـن فلـم يعـد يؤثـر فيهـا، كـما كان فى السـابق فتقـضي ليلهـا حزينـة تنـدب حظهـا، لكنهـا الأن قـد تأقلمـت وتعايشـت مـع ظروفهـا، اقتنعـت أنهـا لـن تغـير سـلوك النـاس مـن حولهـا ولـن تغـيّر نظـرة المجتمـع للمـرأة للمطلقـة، إلا بـأن تعيـش حيـاة الأمـوات تخنـق الأنثـى داخلهـا، لاتضحـك لاتلبـس ،لاتضـع مكياجهـا وعطرهـا، تمشـى كالرجـال، تقيـد حركـة نهديهـا الصاعديـن، وحتـى إن فعلـت كل ذلـك، فلـن يجـدى نفعـا ولـن يمنـع همسـا ولمـزا .

لـذا قـررت أن تنتـصر عـلى كل ذلـك وتتجاهلـه، حينـما رأت فى رغباتهـم الجامحـة فرصـة للسـخرية والتعـالى عليهـم فتنظـر لهـم - كـما صرحـت لهـم بذلـك كثـيرا - كذبـاب يعـف عـلى طبـق مـن العسـل دونـما القـدرة عـلى السـقوط فيـه، تتحاشـى زيـارة صديقاتهـا إذ يخشـين عـلى أزاجهـن مـن فتنتهـا، حتـى مجـرد السـلام عليهـا أو الابتسـام ولـو فى محطـة الأتوبيـس مـن رجـل أو شـاب مـن شـباب المنطقـة صـار تهمـة

وسبة، وهيهات لو ركب معها نفس الأتوبيس أوساقت له الأقدار أن يجلس بجوارها، ودفع لها ثمن التذكرة أو دار بينهم حديث لانتشرت أخباره فى جميع مقاهي الحى البيسط وعلى عتبات وسلالم كل بيوت الحارة.

كانت وحيدة أبيها وأمها، فلما مات الأب بعد طلاقها الأول ،ومرضت الأم بعد التجربة الثانية آثرت أن ترعى أمها، ولم تتعجل فكرة الارتباط للمرة الثالثة، مع مرور الوقت ألفت وحدتها وتعايشت وتأقلمت عليها، اكتشفت جنون العالم فى الرغبة وعجزه عن الفعل

اكتشفت قدرتها على كتابة الشعر فارتادت نوادي الأدب وجالست الشعراء والأدباء ورحبوا بها، كانت موضع اهتمام فى كل ندوة وأمسية، عاشت حياتهم الليلية فى مقاهي وسط البلد، فى البداية استعذبت رائحة الشيشة، ثم صارت علبة السجائر لاتفارق حقيبتها، تنفث دخانها فى الهواء فيعبء المكان بروح أنثوية تثير فيهم رجولة متعثرة عن الفعل، حتى عندما وجدت نفسها فى قلب ميدان التحرير يوم المظاهرات - عن غير عمد- راحت تهتف فى حماسة، كمناضلة ثورية تطالب بحقوقها المسلوبة، لم تسلم من عيون وأطماع المتحرشين بها.

كانت أول تهمة لها فى مكتب التحقيق، أنها تمارس الدعارة مع الشباب فى الميدان هكذا قال لها ضابط التحقيق بعد أن عرف من البطاقة أنها مطلقة، وقد كان ذلك سببا كافيا لعدم تحويلها إلى الكشف الطبي عن العذرية كبقية زميلاتها، فلما أنكرت فاجأها ضابط التحقيق بالمضبوطات التى وجدت معها وهى عبارة عن قميص نوم بمبى مسخسخ وصابع روج وواقى ذكري ومبلغ خمسمائة جنية، وعلبة سجائر محشوة بمخدر الحشيش.

القضية جاهزة والإنكار لايفيد، وفى مثل وضعها لايمكن التكذيب، وعليها بعد ذلك أن تواجه مجتمعا حكم عليها قبل أن يجد الدليل فكيف به والدليل رسمي مقيد فى دفاتر البوليس، من أجل ذلك قبلت العرض وانصرفت من مبنى مديرية الأمن، لكن ضميرها لم يعذبها كثيرا إذ شاهدتهم بعد شهور نجوما فى الفضائيات وقد تذيلت أسماءهم بلقب ناشط سياسي، أو خبير استراتيجي، فقد خدمتهم ربما كثيرا يوم أن أرشدت عليهم .

تضحك وهى تروي حياتها وكأنها تسخر من هذا العالم، تتحدث عن فشلها فى زواجها الأول وهى ابنة الثامنة عشر وقد تفجرت فيها الأنوثة التى تكفي ألف رجل، فكانت صدمتها من ليلة دخلتها، حينما أدركت عدم قدرته على

الفعل، حاولت مرات عديدة لكنها فشلت، شهورا تحاول يوما بعد يوم، فلما ضاق بعجزه اتهمها بخيانته، فلما كشف عليها الطبيب، كان الطلاق حلا للفضيحة، لكنه ترك فيها جرحا وتسبب فى وفاة أبيها،

بعد عامين ارتبطت بالثانى قريب لأمها من بعيد ،كان مطلقا وله ولد وبنت، كانت فرصة سهلة وجيده له، كان أول من فض بكارتها إلتهم أنوثتها بنهم الجائع، وسلمت نفسها له باحتياج ورغبة الحرمان من اللذة، فلما ارتوى منها، ملّها وعاوده الحنين لولديه، لم تُطق كونها خادمة، أعاد زوجته الأولى إلى عصمته، فلما اعترضت طلقها.

كان ذلك هو محصلة لقائي الأول بحسناء، شعرتُ بحاجتها للحكي، أن تقذف كل ما بداخلها، كبركان ثائر يريد أن يلقى بحممه، لم أقاطعها، لحظة وربما لم أسألها، تركتها تتنقل من موضوع إلى موضوع ومن حدث إلى حدث، من المطعم ونحن ندلف من شارع إلى شارع فى وسط البلد، إلى الكافية من شرب الشيشة ،ثم لجلسة على النيل أمام ماسبيرو كعاشقين وهى تطالع صفحة الماء الرقراقة، مرت الشمس من فوق رؤسنا ثم مالت وانزوت فغربت واكتست سماؤها بفستان سهرة تزينه النجوم وأضواء النيون التى تتلألآ هنا وهناك على صفحة النيل، فلما أنهكها الحكى، قالت لى مبتسمة:

: أصبتك اليوم بصداع وأثقلت عليك بحكايتي لكننى، وجدت فيك الصديق الذى أتمنى لو أبوح له ما بداخلي

أشعرتني كلماتها بواجبي نحوها، فكانت ابتسامتي التى لم تفارقني طوال اليوم خير معين لإنهاء هذا اليوم الذى اكتشفت فيه حسناء زميلتي فى عملي الجديد بمصلحة الأوقاف العمومية والقائمة على تدريبى.

جلست معي لساعات طويلة فى العمل، أرهقت نفسها كثيرا، لم تبخل على بمعلومة، كنت أحب الجلوس جوارها فى بداية النهار أستمتع برائحة برفانها، نضارة وجهها الصبوح، كثيرا ما سمعت من الزملاء كلمات وهمسات

: يا بختك ياعم / لك نصيب / خذ بالك لتقع

لم أفهم مضمونها إلا اليوم، بعد أن قبلتْ عزومتي على الغداء، لأشكرها على مجهودها معي، رغم ترددي فى بداية الأمر، خشية أن تفهم طلبي خطأ، أو أن تحرجني بين الزملاء، لكنها قبلت مبتسمة كعادتها معي، منذ تعييني فى المصلحة، وبنفس العيون الواسعة التى تراقبني فى كل حركة منذ دخلت هذا المكتب، كنت أعتقد أن الأمر عادي فى البداية، شدني اهتمامها الزائد، زاد من تطلعي ورغبتي كثرة الهمسات واللمزات التى تدور بين الزملاء عنها،

كنت أشعر بحقدهم و غيرتهم، لكنني كنت أجد متعة فى حديثها، أشعر بشىء ناقص يوم أن تغيب عن المصلحة، مرة اتصلت بها فى العطلة لأسأل عنها وجهزت سؤالا فى العمل كنت أعرف الإجابة عنه، شعرت هى بحاجتي للحديث ،وربما ومن أجل ذلك نفذ رصيد الشحن قبيل الفجر دون أن ننهى حديثنا، هى فى بداية العقد الثالث من حياتها، خمرية اللون تتدلى قصة الشعر الأسود من منديل الرأس الذى يلم جزءا كبيرا من شعرها، قصّت لي أن مهارتها فى الطبخ تحول دون المحافظة على وزنها المثالي، لذا فهى تتمنى أن تتخلص من الوزن الزائد فى جسمها وخصوصا عند البطن و الأرداف، فى البداية كنت أشعر بالخجل من بعض الكلمات والألفاظ التى تأتي كشرارة نار بين شفتيها الحارقة بلونها القرمزي، ولكنني عرفت أنها طريقتها، تتحدث بعفوية مفرطة تطنب إلي وكأنني صديقة مقربة لها دون خجل أو مواربة،

ربما كان ذلك هو سبب طمع الآخرين فيها، تخلع نظارتها الشمسية فتطالعني بعينين واسعتين لامعتين وأهداب ورموش مكحلة وحاجب محدد، أنف دقيق بارز على صفحة وجه خمرى مسحوب به بعض الندوب وثغر ذى شفة غليظة، دائما ما تفوح منه رائحة القهوة والسجائر

وقليلا ما تتغير رائحته من طول الحديث، وقد تناثرت على جبينها حبات عرق خفيف تمسحه وهى تمرر يدها على وجهها وجبينها وهى تعدل من وضع منديل الرأس.

يوما بعد يوم تتلاشى الحواجز بيننا، وأجدني فى لهفة لسماعها، والحديث إليها، لم يعد لكلام الأخرين معنى، ألازمها ساعات العمل لاأفارقها، فتختلط أنفاسي بأنفاسها بأريج العطر النافث من حركة التفاتة رأسها أو رجرجة نهدها، وحتى ساعات متأخرة لاينغلق الهاتف عن محادثة طويلة تستغرق الليل وأنا جالس على سريري مستلق أسمعها وتسمعنى، نبدأ كالعادة من السلام والاطمئنان ويدور الكلام فى الهواء دورته عن أحوال الأهل والأقارب والجيران وزملاء المصلحة حتي يصب فى خانة ألفة المشاعر والأريحية ومعاناة الوحدة والرغبة.

فى المصلحة بعد مدة تحاشوا الحديث عنها أمامي، لكن كنت أسمع الهمهمات تدور كطنين هنا وهناك، فكانت تقول لي إنهم يغارون منك.

أرافقها كل يوم عقب دقات الساعة الثانية، و كثيرا ما كنت أتابع عقاربها التى تحول بين انفرادنا دون عيون الهمس ورطانة النظرات اللئيمة، تتسارع عجلة قطار اليوم لمحطتها الأخيرة كومضة برق تفاجئنا بحلول الساعات الأولى

من نهار يوم جديد، أخطو بها نحو مسكنها، لاتفارق يدي يدها إلا فى منتصف الطريق، تخطت مفردات الكلام بيننا كل حواجز الخجل وكل مسافات التظاهر بالزمالة أو الصداقة.

كانت الرغبة مثار كل حديث، والجنس نهاية كل مطاف، كانت طلاقتها دائما ما تفتح لي الطريق، أشعر بنبضات قلبها تقول هئت لك، ونظرات عينيها تتكسر فى لحظة اكتشاف عجز زوجها الأول، وكيف كان شعورها عندما مارسته مع زوجها الثانى برغم نفورها من رائحته المقززة إلا أنها كانت كجائعة أمام وجبة حامضة، تساقطت الدموع على خدها لتبتل أصابعي بمائها وأنا أضمها تحت ذراعي، قطفت منها أول قبلة لي، حكّت أخر مؤخرتها بي وأنا أمسك بخصرها رافعا إيّاها على سور الكورنيش، حضنتها، مارست العادة السرية كثيرا وأنا أتخيلها على سريري، كنت سعيدا مستمتعا طلقا بعلاقتي بها، لم أر فى حياتي فتاة أو سيدة شعرت بها أو تفاعلت معها كحسناء .

كنت وحيدا لأبي وأمي، علاقتي مع بنات أعمامي وخالاتي وحتي بنات الجيران لاتتعدى علاقة الأخوة والصداقة، لم يُثرنّ رغباتي كما فعلت حسناء،عشتها وعاشتني، لم أسأل يوما نفسي عن نهاية لعلاقتي بها حتى فاجأتني بسؤالها، ودار صمت طويل لمحته فى عيني أدركت

أنها قد لا تستطيع الحصول على وعد مني فأطرقت منكسرة وقد ذبلت ابتسامتها : أعرف أننى مطلقة وأنت شاب لم يسبق لك الزواج، لكنك تحبني

شعرت بالعجز أمامها، خشيت أن تفارقني، أشعر بأنني سأفقد شيئا كبيرا، لا أملك أن أتخيل يومي دون حسناء، بعد كل هذه الشهور الطويلة من البهجة والفرحة والرغبة، لكن كيف أصارح أبي وأمي، كيف أقول لهم أنني سأتزوج مطلقة، بل كيف سأواجه العيون والألسن التى كانت تأكلها أكلا كل يوم، شريط من الشهور يمر أمام ناظري، فكرت فى زوجها الأول وكيف عجز ذلك التيس أمام هذا الجسد الفائر، وكيف لم يستطع زوجها الثانى التمسك بها برغم أنه أول من فض بكارتها، دارت فى مخيلتي كل الحكايات التى كانت تروي عنها، من قبّلها ومن لامسها، أو حتى كان أكثر مني جرأة وحكى أنه عاشرها، من يدريني ربما سبقني إليها؟

هى لم تكن تمانع فى أيّ شيء معي، فقط أنا الذي لم استدرجها لممارسة الجنس، كانت تشعر بي وأنا أحك جسدي بها أتعمد ملامسة نهدها، يوم قبلتها وضممتها بقوة، شعرت برغبتي فيها ولم أجد منها مقاومة، ربما لوكنت حاولت معها، هى ليست بكرا حتى أتأكد منها، ما يدريني صدق ما تقول ؟

كنت مدفوعا دائما نحوها بدافع الغريزة والرغبة، يكاد عقلي ينفجر، لأول مرة منذ شهور تمر على ليلة كئيبة كتلك، شل عقلي من التفكير، لم أهاتفها ككل ليلة، نهضت من فراشي مع دقات المنبه المزعج جدا هذه المرة منصرفا إلى الحمام، رششت قليلا من الماء على وجهي، لم أغتسل ككل صباح بفعل جريرتي الليلية،

سحبت قميصي وبنطالي وذهبت للمصلحة، أثر الإرهاق كان واضحا، كنت أشعر فى كل حوار جانبي كعادة المصلحة عندنا أنني وهى طرف فيه أو ربما محوره الرئيسي، شعرت باختناق وضيق، تحاشيت الحديث أوتناول الإفطار كعادتي كل صباح معها، تحججت بتعب فى المعدة، وانصرفت قبل الميعاد، أسير فى الشوارع بلاهدف، تحاشيت أن أمر بأيّ شارع سرت فيه معها، وكأنني أخشي عيون من شاهدونا معا،

شعرت بدوار خفيف، كانت مفاجأة عودتي للبيت مبكرا تستحوذ على اهتمام الجميع، لولا مفاجأتي لهم بقبول الزواج من ابنة عمى، فطارت زغرودة من أمى تجلجل أركان الشقة، بينما توجه أبى على الفور إلى الهاتف ليحدد الميعاد مع أخيه.

فى ليلة الزفاف حضرت حسناء مع زملاء المصلحة، كانت فى أجمل زينتها، لم تفارقها ابتسامتها، تمنيتُ لو نهضت من الكوشة وأخذتها فى حضني وهربت بها بعيدا، نظرت

فى عينيها وهى تسلم علي، راقبتها وهى تقبل عروسي، كان فستانها ضيقا على مؤخرتها ،تخيلتها فى حجرتى وأنا أضم عروسي، شعرت برهبة أن أكون مثل زوجها الأول، أصابني هذا الشعور بالضيق والجزع والخوف الذى تملكني للحظات، حتى رأيت قطرات الدم تروي قطعة القماش البيضاء المفرودة على ملاءة السرير، تخيلتها فى عروسي، ملامحها قريبة بعض الشىء، بيد أن الأخرى كانت نحيفة، قليلة الكلام خجول، لاتثير رغبتي، كنت فى الغالب استحضر همس حسناء لي على الهاتف ليلا قبل أن أفرغ نار الشهوة الواجبة، مرة أومرتين بل مرات عديدة، حلمت بها، تخيلتها، استوحشت كلماتها الفضفاضة المنطلقة.

طرت إلى المصلحة يوم انتهت إجازة عرسي، كنت أتحرق شوقا لأراها، قابلني الزملاء بالترحاب والتهنئة حتى الموظف الجديد فى القسم، مدت لي يدها مصافحة و ابتسامتها العذبة لاتفارق وجهها النضر، حاولت طوال اليوم أن أجذبها بنظرة عين أو أبتسامة أو أفتح معها بابا للحديث، أقول لها ما بي، لعلها تغفر لي، أعيد ما كان يبننا من وصل، لكنني كنت أتراجع وأشعر بالخجل من نفسي فقد طعنتها طعنة بالغة.

ظللت أراقبها طوال اليوم، لم تنته همهمات الزملاء وهمساتهم كالعادة، بينما كانت هى مشغولة بتدريب

الزميل الجديد، كنت أتابع عقارب ساعة الدوام حتى تأذن لى بملاحقتها، لن أتركها تفلت منى قبل أن نتحدث، ستتفهم وضعي، ستغفر لي، سنعوض كل مافات من آخر لقاء بيننا، أعتقد أنها فى شوق لي، ستذوب فى يدي مع أول لمسة لها، اللعنة على عقارب الساعة والوقت الكئيب.

على سلم المصلحة كنت أنتظرها، خرجت وضحكاتها تنثر فى الهواء انطلاقا يبث في الحياة من جديد، كانت خطواتها متلاحقة، وأنا أتحرك خلفها بعيدا عن عيون زملاء المصلحة حتى نتلاقى فى نهاية الشارع المعتاد، فى اتجاه المطعم، وكأنها كانت تقرأ ما أفكرفيه، أمام مدخل المطعم كان ينتظرها الموظف الجديد، يضع يده فى يدها، ثم تدخل طواعية تحت ذراعيه، قبل أن يدلفا داخل المطعم.

قال زميل فى المصلحة: أنا شاهدتها تركب معه التاكسي وأعتقد أنها ذهبت معه للشقة، بينما قالت زميلتنا كبيرة السن: هذه البنت فاحت ريحتها فى المصلحة، ربنا يسترعلى علينا

تمتم الجميع وأنا معهم : آمين

تمت

القاهرة ٢١/ ٧/ ٢٠١٤

مكتبة الاسكندرية

اكتست بحمرة الشفق تلال السحب حاضنة شمس الغروب، وهى تتوارى شيئا فشيئا خلف هضاب الموج الهادر فى زحفه المقدس نحو الشاطئ، فما أن تبلغ أعتابه حتى تنساب إلى حضنه مهدهدة يغلف صفحتها بريق الذهب اللامع، فتتهادى حتى تلامس خد الرمل، تقطف قبلة الوادع قبل أن تعود إلى مثواها الأخير، بينما السماء الأم بفستانها الأزرق ذي الوردات الحمر فى مفرق المغيب، تلقى بحبات المطر كرشة ملح تحصن بها عروس البحر.

كانت على الجانب الآخر من نهر الطريق تراقب حركة السيارات المارة فى الاتجاهين، تترقب وصول أفواج الزائرين العرب والأجانب والمصريين ،على مدرج سلالم مدخل القبة السماوية تمد يدها السمراء النحيفة الصغيرة، تجلس القرفصاء وقد إرتدت جلبابا من الدمور المهترئ، وجها

طفوليا صغيرا شاحبا، كسته لفحة الشمس لونه القمحى، تتناثر خصلات شعرها المهوّش الفاحم على جبهتها الصغيرة وأكتافها، كقنفذ يتخفى خلف فروته الشوكية.

الكثيرون يمرون من هنا، قليلون من يعيرونها اهتماما، والأقل من يعطف على حالها بمصمصة شفاة أو كلمة حرام، والنادر من يلقى إليها بقطعة نقود أو فاكهة، كسرة خبز محشوة بالجبن أو الطعمية، مرة واحدة تتذكرها بحزن وأسى عندما أعطاها رجل سمين سندوتشا محشوا باللحم ووضع بيدها خمسة جنيهات ورقية، بعدما أجلسها فى حِجره للحظات داخل سيارته الكبيرة و دار بها وسط الميدان، يحك عضوه الذكري بها حتى ابتل بنطاله تم أنزلها حيث تجلس.

حان الآن موعد مرور السيارة، تحفظ موعدها عن ظهر قلب، تراقبها كل يوم فى الذهاب والعودة، إنهم فى مثل سنها ينظرون إليها وهى تتابعهم حتى يتلاشى كل شىء أمامها، تخيلت نفسها يوما إلى جوارهم، بل إلى جواره هو، إنه من ينظر إليها، فى كل مرة ترقبها عيناه من زجاج السيارة الخلفى، كانت تشعر به، كأنه يناديها، لم تتحقق بعد من ملامحه الصغيرة، يوما رأته يشير لها بيده، ظلت تلوح له بيديها الصغيرتين، حتى اعتادته فى اليوم مرتين.

تتابعه فى كل مرة ترى فيها السيارة، باتت تحفظ النقوش المرسومة عليها دون أن تدرى لها معنى، غير أنها سيارة تلاميذ المدرسة التى فى نهاية هذا الشارع الطويل، دون أن تشعر بيدها تلوح له وعيناها تتعلق بآخر نظرة منه، حتى تختفى السيارة وتذوب فى الأسفلت.

تنعكس منها أشعة الشمس بزاوية حادة وقت العصاري فى اتجاه البحر وعلى الكورنيش بينما يضوى أسفلت الشارع كمرآة ترى فيها انعكاسات الضوء الشارد من السيارات فى كل إتجاه، يشع منها ضوء أبيض تتناثر أشعته فى كل اتجاه يغمر وجه الأرض وصفحة السماء، نصف دائرة من النور تبعث للكون سنا من نورالإله، تحمل بين جدرانها وفى طيات مخطوطاتها تجربة الحياة على الأرض، بينما يشع الضوء الأزرق من قبتها السماوية والتى تأخذ شكل الكوكب المائي وهى تستشف هذا الضياء.

لاتزال جالسة كعادتها كل يوم، تمد يدها وتنتظر يد العطف، تترقب سيارة الأمل تمر فى ميعادها المحدد، تشاغلت عنها اليوم بتلك السيدة السمينة التى ألقت بثمرة التفاح فى حجرها وهى تعبر الطريق، بينما كان الرجل الذى يمر بجوارها يضع فى يدها جنيها من الورق.

انتبهت لميعاد السيارة التى مرت للتو من أمامها، فراحت تراقبها من بين أرجل ذى القامة الطويلة غير مبالية بما يُلقي فى حجرها، لاتزال التفاحة فى حجرها، إنها سيارة الحياة فى دورتها الأخيرة لهذا اليوم، وهاهو ينظر إليها من زجاجها الخلفى، كانت كعادتها تبتعد شيئا فشيئا، انتبهت للجنيه الورق فى يدها وقطعة التفاح، مدت يدها للكيس المعلق فى رقبتها فوضعته فى حجرها وبدأت تعد وتحسب حصيلة ما جمعت اليوم، فقد آن وقت المرواح، مدت بصرها فكانت المفاجأة.

السيارة تتوقف فى مكان هناك، ماذا حدث ؟ هل توقفت من أجلها ؟ أم تعطلت ؟

أوراق شجر الخريف وذرات التراب وعفار يعبء المكان، نوة البحر التى هبت لتوها تعصف بكل شىء، تحرك ثوب الدمور عن حجرها، فتتطاير أوراق النقود، تهم لتمسك بها فتنهض مسرعة لكن قطع النقود الفضة تتدحرج هنا وهناك، إنها حصيلة يوم طويل، تحبو على ركبتيها الصغيرتين تلم النقود من هنا وهناك، قطعة قطعة وورقة ورقة، بعض الأوراق تطير إلى المدرج، تحاول اللحاق بها، لكنها فجأة تتنبه لهذا الواقف أمامها، فترفع رأسها، إنه هو، بشعره الناعم الطويل يتطاير مع الهواء، وعينيه

اللامعتين كبريق الماس، بشرته البيضاء الناعمة ورائحة القرنفل تهفهف عليها، شنطة المدرسة المعلقة على ظهره، ملابسه الأنيقة الزاهية وحذائه اللامع، نعم هو من كان ينظر إليها كل يوم من الزجاج الخلفي للسيارة، يقف أمامها تتشاغل به عن جمع نقودها فيبادرها بسؤال خاطف

: هل وجدت كل النقود التى سقطت منك

: ليست كلها

ببراءة يشوبها الانكسار وتستطرد

:باقي جنية ورق

:ممكن أن تبقي بعض الوقت فقد يعطيك أحد غيره

:ورديتي انتهت ولابد أن أعود

: أنا ساعطيكي الجنيه الضائع

تبتسم فتلمع بعينيها نظرة الرضا، وهو يشرع فى تنزيل شنطته ويجثو على ركبته إلى جوارها، يفتح الشنطة فتقع بعض الكتب على الأرض، يبحث عن حافظة نقوده.

لوحة زيتية لغابة خضراء تتعانق أشجارها وسماء صافية تطل منها أشعة شمس فتلقي بضيائها وظلال أشجارها على أرض تحتضن ولدا وبنتا فى مثل سنهما يلعبان، كرة

تطير فى الهواء بينما الحمام والعصافير صغيرة الحجم ترفرف هنا وهناك على رسمة غلاف الكتاب، مدت يدها، تقلب فى صفحاته تشاهد الصور والألوان الكثيرة الزاهية، تنشغل عنه فينظر إليها و قد أخرج الجنيه من حافظته وناولها

تنظر إليه ولايزال الكتاب بين يديها، كأنها تحاول الاحتفاظ به بينما الورقة النقدية بيده فتبادره بابتسامتها الناعمة

: كتبك حلوة وبها صور كثيرة وجميلة

: وأنت، كتبك لايوجد بها صور؟

: أنا لايوجد عندي كتب أصلا

: ألم تأخذي كتب المدرسة بعد ؟

: مدرسة، أنا لا أذهب للمدرسة

: لماذا؟

تمط شفتيها الصغيرتين، وترفع كتفها بحركة تعبر عن عدم معرفتها السبب

: بابا رافض ذهابك للمدرسة

: بابا، لا أعرف أين أبي

: مسافر؟

تعيـد نفـس حركـة الشـفاة والكتـف واليـد بعـدم المعرفـة وعـدم الاهتـمام

: مع من تعيشين؟

: مع أمى و إخواتى ،هل لك إخوة مثلي ؟

بابتسامة بريئة يهز رأسه بالإجابة

: مايسة

: هل تذهب معك للمدرسة

: لا إنهـا صغـيرة، سـتذهب العـام القـادم إلى **kg1** ،وأنـت عنـدك إخـوات؟

ترفع يدها وهى تعد على أصابعها وكأنها تتذكرهم

: صبحي وعلى وفوزية وسيدة ....

: وإنت اسمك إيه

: سعيدة، وأنت ؟

: مازن

: مدرستك جميلة ؟

: جميلة جدا وأنا أحبها لأنني أتعلم فيها أشياء كثيرة، وأنا مشترك فى الإذاعة المدرسية، وكثيرا ما نذهب فى رحلات جميلة إلى أماكن كثيرة

: هل ذهبت لحديقة الحيوان

: نعم والمتاحف والأهرام ومكتبة الإسكندرية تلك، هل دخلتي هذه المكتبة ؟ إنها رائعة وجميلة.

تهز رأسها بالنفي وهى تتطلع خلفها لصرح المكتبة والقبة السماوية

: ما رأيك لو ندخلها معا، أنا أعرفها جيدا

تهز رأسها بالموافقة وعلى شفتيها الصغيرتين ابتسامة حلوة، يهمُ واقفا وهو يمسك يدها الصغيرة فتنهض معه فيقول لها وكأنه يلقي إليها ببعض التعليمات

: أولا يجب أن نقطع تذكرتين للدخول

نظرتها تعطيه إذن بالطواعية والتبيعة بابتسامة بريئة، يتقدم نحو شباك التذاكر، بينما هى تلم كتبه وتضعها فى الشنطة وتحملها وتمضى خلفه، من بعيد تظهر سيارة المدرسة واقفة والسائق لايزال يُغير العجلة والمشرفة وبعض التلاميذ حوله يحاولون المساعدة، يتوقفان عن السير فى

اتجاه الشباك فجأة ، وقد بدا عليه نوع من الإحراج والخجل ممسكا ببضع الأوراق النقدية

: النقود معى لا تكفي لتذكرتين

تبتسم هى وتخرج كل ما فى جيبها من نقود وتضعها فى يده، تلمع عيناه فرحا ويبرق فى عينيها الأمل يسألها

: وماذا ستقولين لهم عندما تعودين؟

بنفس حركة شفتيها والكتف واليدين، تشير بعدم المعرفة واللامبالاة لكنها فى تلك المرة تنطلق منها ضحكة صافية، فيضع يده فى يدها ولاتزال الشنطة معلقة على ظهرها، يطوحان يديهما فى الهواء وهى تطير بقدميها الصغيرتين من على رخام الممشي، يتجهان إلى شباك التذاكر.

: مازن

صوت المشرفة جاء حازما وصارما من الخلف

: تعالى هنا

تتسمر حركة الطفل فجأة، يستديرعائدا للمشرفة، تخلع الشنطة فيتناولها وهو ينظر إليها ويضع فى يدها كل النقود، ثم يمضى فى اتجاه المشرفة، بينما يداعب الهواء البارد خصلات شعرها وجلباب الدمور، تفارقها ابتسامة

لم تكتمل بعد، تنظر إليه تتابع خطواته من مكانها، يركب التلاميد السيارة، فتتحرك شيئا فشيئا، تبتعد، وتبتعد، حتى تتلاشى، بينما هى تمضي فى اتجاه آخر

على درج المدخل هناك كتاب منسي، تتقلب صفحاته مع حركة الهواء وتتطاير إلى جواره أوراق الشجر وورقة نقدية مفقودة تستقر داخل إحدى صفحاته ويغلق الكتاب دفتيه.

تمت

الاسكندرية ٢٠/ ٤/ ٢٠١٢

أن تجلس فى الصف الاول

ألقيت بجسدي المنهك من عناء يوم طويل، كالعادة على السرير الذى انبعجت وتحوصلت فى زواياه وباطن مرتبته قطع القطن، كهضاب ووديان حجرية تفوح منه رائحة زرنخة قديمة، تذكرني بالسنوات الأولى لمولد أحمد، بقايا البقع المتداخلة، من الشاي والحلبة وأشياء أخرى، كرمشة فى متوالية لانهائية تتمدد على ملاءته الخفيفة ذات الخروم السوداء من فعل سيجارة ماقبل النوم أو ما بعد نشوة اللذة المعتادة.

تتمدد خيوط العنكبوت فى ركن الحجرة ما بين السقف الداني والجدار الذى اصّفر لونه كسحابة صيف خانقة، أزيز صوت صاروخ الحداد أسفل الشباك ينحت فى جدار أذنى منذ زمن، تدخل حاملة كوب الشاي، بينما يدخل هو خلفها ويعتلى السرير بقامته القصيرة ونظارته الصغيرة

المقعـرة التـى تـأكل نصـف وجهـه ليأخـذ مكانـه إلى جـواري.

: بابا، أنا جبت الدرجة النهائية فى امتحان الشهر

أخذته فى حضني وأنا أضع قبلة على خده

: شاطر ياحمادة، أنا عايزك دايما تطلع الأول

تبسمت بحسرة وهى تضع كوب الشاى بيدى

: مظنـش، طـول مـا مُدرسـة الحسـاب حاطـاه فى دماغهـا كل مـا يطلـع قـدام ترجعـه ورا

أشـعل السـيجارة الأخـيرة فى العلبـة، بينـما يتطايـر دخانهـا كحيـات تسـعى فى الهـواء تمتـزج ببخـار كـوب الشـاى، ورائحـة الكبريـت تمـلأ المـكان

: إنتـى مـش روحتـى لهـا الاسـبوع الـلي فـات، وقلتيلهـا إن نظـره ضعيـف وقصـير ومـا بيشـوفش ورا

بتنهيـدة منكـسرة وهـى تهـش ذبابـة تـدور فـوق كـوب الشـاى، بينـما تمـددت خيـوط الدخـان فى أرجـاء الغرفـة.

: روحـت لهـا بـس مفيـش فايـدة رجعتـه تانـى آخـر واحـد، إنـت لازم تـروح بنفسـك للمديـر وتشـتكي لـه

نفس عميق من السيجارة، وقد تمددت رئتي قبل أن يضغط عليها الحجاب الحاجز بقوة لينفث دخانه فى الهواء، بينما كانت رشفة الشاى تحاول البحث عن مجرى لها لتستقر فى معدتى التى بدأت تشعر بحمل ثقيل، أحاول أن أتخلص من هذا الحوار الذى قد يكلفنى عناء يوم وإذن من العمل، وقبول سماجة الأسطى حتى أذهب لتلك المُدرسة التى أتمنى أن يناولني أحد رقبتها.

:يوم الأحد أجازة أبقى أعدى عليها

: مينفعش مش بيقابلوا أولياء الأمور إلا يوم الخميس بس

كانت تطبق بعض الملابس الداخلية و تضعها فى درج صغير أسفل الدولاب، أخر نفس من السيجارة قبل أن تنغمس فى التفل بعد آخر بق من الشاي، فتتصاعد بقايا الدخان، أناولها الكوب وأنا أشد الكوفرتة على جسدي

:الخميس الجاي حستأذن ساعة من الورشة وأروح لها

أتذكر آخر مرة دخلت فيها المدرسة الإعدادية الملحقة بمبنى المدرسة الابتدائية منذ عشر سنوات حينما طلبوا شهادة المؤهل لضمها لملف السفر إلى الخارج وقتها قال لي الموظف

: أنت ساقط إعدادية يعني ملكش شهادة ولو عايز تاخد شهادة تدفع رسوم وتدخل الامتحان السنة دى

وقتها أشار عليّ عم حسنين فراش المدرسة ،وكان صديق لوالدي، ومر بتجربة السفر للخليج وله خبرة كبيرة فى ذلك ،

: من الأحسن تكتب من غير مؤهل بس بتقرا وتكتب، الخلايجة مش بيحبوا العمال المصريين المتعلمين بيخافوا منهم ومش بيشغلوهم بيجبوا بدل منهم البنغال أرخص وأضمن

تآكل سور المدرسة القديم وقد شبت الطريق المؤدية إليه بفعل أعمال الحفر والرصف والهدم والبناء التى دارت فى محيطه منذ زمن، جذع شجرة التوت المقطوعة، باب المدرسة الحديدى مجنزر، وقد مات عم حسنين منذ سنوات كمدا، بعدما جاءه جثمان ابنه من الدولة الخليجية، فقد دهسته سيارة مجهولة هناك، قال لى والدي وقتها مبررا رفضه السابق دفع مبلغ الألفي جنية لمتعهد السفريات

: احمد ربنا كان زمانك دلقوتي جايلي فى كفنك زي ابن عمك حسنين، الكفيل دهسه بسيارته لإنه شك إن فى علاقة بينه وبين مراته

تهلل وجهه الصغير وقفز من آخر الصف ،ليمسك بيدي على باب الفصل ،وأنا أتحدث مع المدرسة التى

أخرجت كشفا من حقيبتها، وراحت تراجع فيه اسمه بعدما سألتني عن اسمه كاملا وعملي

: صنايعي فى ورشة خراطة

هزت رأسها دون أن تنظر لي، وقالت للولد القابض على يدي بقوة

: إنت بتاخد درس عند مين يا أحمد

استفزني سؤالها وعدم نظرها لي

: هو مابيخدش دروس دا لسه فى تانية ابتدائي

ردت بحدة قاضبة حاجبيها

: ماهو علشان كدا مستواه ضعيف

:يا أبله أنا بقولك نظره ضعيف، وقصير، فلما بيقعد ورا ف آخر الصف ما بيشوفش السبورة

بامتعاض شديد وبحدة وهى تلوح بيدها

: أهو دا اللى إحنا فالحين فيه ما نبطلش فلسفة، نسيب المشكلة ونمسك فى الفرعيات ابنك يا أسطى عايز يتقوى فى المادة، أما موضوع يقعد ورا يقعد قدام مش فارقة كتير،

وهى تلوح لي بيدها محاولة إنهاء الكلام معي

:وبعديـن أنـا مـش فاضيـة ومعنديـش وقـت أضيعـه معـاك، عنـدك المديـر روح اشـتكي لـه

كان صغـيري لايـزال متشـبثا بيـدي وهـو يطالعنـي بقامتـه القصـيرة بعينـين لامعتـين كان صوتهـا حـادا معـى، ربـما شـعر بهزيمتـى أمامهـا فاستسـلم ليدهـا وهـى تسـحبه داخـل الفصـل، تعثـرت الكلـمات عـلى شـفتي وكأنهـا لمحـت فى عينـي نظـرة الـتردد فصاحـت فى الولـد زاعقـة

: روح أقعد مكانك

تحركـت رجليـه الصغيرتـين ببـطء إلى آخـر الصـف، كان ينظـر إليّ بعينـين منكسرتـين ، صاحـت مـن داخـل الفصـل كبـوق حـرب: مـين الـلى حفـظ النـص

: دي مـش مدرسـة دي عزبـة أنـا حوريكـي أنـا لازم اشـتكيكي للمديـر

هكـذا حدثـت نفـسي وأنـا أهبـط درجـات السـلم مـن الـدور الثانـى حتـى لافتـة مكتـب المديـر، فاندفعـت بـكل جرأة كان يتحـدث فى التليفـون الأرضي وكثيرمـن الأوراق والملفـات عـلى المكتـب بعـض الكـؤوس والشـهادات فى دولاب صغـير وصـورة السـيد الرئيـس أعـلي كـرسي المكتـب ومروحـة سـقف تـدور

: يافندم دا شرف لينا، وبكرة حيكون الترشيح على مكتب حضرتك، مع السلامة، فى رعاية الله

واضعا السماعة فى مكانها منتبها لي، وبوجه باش

:أهلا وسهلا اتفضل، خيرا

ارتعاشة غضب انتابتني وقد تعثرت الكلمات على شفتي مرة أخرى ،فخرجت بعض العبارات غير مفهومة ومتقطعة وبصوت مرتفع، تعامل معها المدير بابتسامة باردة وكوب من الشاى وسيجارة ومرت لحظات، كنت قد خرجت من باب المدرسة إلى الورشة إلى البيت سألتنى

: عملت إيه فى المدرسة النهاردة، أحمد بيقولي إنك زعقت مع الأبلة

هززت رأسى وأنا آخذ أخر بق من كوب الشاي مع أخر نفس من السيجارة ،قبل أن ألقي العقب بها : اشتكيتها للمدير وهو حيعمل اللازم

وهى تتناول مني كوب الشاي و تستدير للخروج من الغرفة

: بيقولوا المدير دا بتاع كلام وبس، ومبيعرفش يعمل حاجة مع المدرسين وخصوصا الأبلة دي

تذكرت لحظة وقوفي أمام الأبلة، وعدم قدرتي على ردها، وهى تعاملني باستخفاف، وتزعق فى الولد أمامي، وتعثر الكلمات على شفتي، ولكن تصرف المدير كان غاية فى اللطف واستطاع أن يحتوي المشكلة، ووعدني بالحل وهو رئيسها فى العمل، وبالتأكيد ستخضع له، وربما نهرها أو أعطاها جزاء، بخصم يوم من راتبها ،بالتأكيد غدا ستعيد الولد لمكانه، وستتحاشى التعرض له مرة أخرى، وربما جاءت للبيت لتعتذر حتى أصفح عنها، فكيف تقول ذلك هذه المرأة البلهاء عن هذا الرجل المحترم الذي استقبلني وأحسن ضيافتي ووعدني بحل المشكلة فهببت فى وجهها غاضبا

: إزاى ميعرفش يعمل حاجة دا مديرمحترم، وهو وعدني إنه حيعمل اللازم إنت بس بطلى رغى ونقطينا بسكاتك .

محاولا تغيير الموضوع وأنا أشد الكوفرته على جسدي

: ألا الود أحمد فين

وهى تطفىء النور وترد باب الغرفة

: بيلعب مع العيال فى الشارع

فأجذبها تحت الكوفرتة وأسفل جسدى بدون مقدمات أتوق لسماع صوتها وهى تتألم تحتي وصورتها التى لم تفارق مخيلتي منذ هذا الصباح

كان يوم الأحد ماطرا، وقد خلت الشوارع من المارة فى هذا الصباح البارد من منتصف طوبة، نصحنى محمود الذى يعمل بالورشة معى بعد أن تخرج من الكلية ولم يجد عملا، أن أذهب للإدارة التعليمية لأرفع شكوى لمدير الإدارة التعليمية، حتى لا تضيع السنة على الولد بعد أن تحولت وعود المدير إلى مشاوير بلا فائدة.

كان الرصيف مجددا وبعض قسارى الزرع والورد على جانبي المدخل وسجادة حمراء تتدرج مع السلم، سألني موظف الاستقبال عن وجهتي فلما أخبرته، قال لي

: تعالى بكرة علشان النهاردة فى احتفال والسيد الوزير حاضر بنفسه

حاولت أن أشرح له عدم تمكنى من الحصول على إجازة من العمل إلا الاسبوع القادم، لكنه صدني بحزم وقال: ياأستاذ مش حينفع الإدارة كلها فى حفلة السيد الوزير

تراجعت بخطوات للخلف تراءت لي نظرات أحمد، وهو يختفي بحجمه الضئيل خلف التختة فى آخر الصف، وسؤال أمه الذى لاينتهي عن مستقبله الذى سيضيع، منكس الرأس وكأن جبلا فوق عنقى، وقدمى لم تعد تتحمل جسدى المتعب، كان صوت رئيسه فى العمل عاليا

وهـو يقـول: القاعـة فاضيـة فـين المدرسـين والصحفيـين والنـاس الـلى وجهتـوا لهـا دعـوات

: يافنـدم إحنـا بعتنـا لـكل مدرسـة تبعـت عـدد مـن عندهـم بـس محـدش جـه

: اتـصرف يابنـى أدام منظرنـا بقـى وحـش حفـل فيـه الوزيـر والقاعـة فاضية

كنت قد استدرت للخلف فسمعته ينادى:

أخينا، أنت ياأستاذ

التفـت إليـه وأيقنـت مايريـد وكأنهـا دعـوة السـماء، فهـززت رأسي لـه، وتقدمـت ناحيـة السـلم ذو السـجادة الحمـراء، دلفت إلى المدخـل، كانـت القاعـة مجهـزة، مقاعـد وثـيرة ومنصـة عاليـة خلفهـا صـورة السـيد الرئيـس والعلـم وخلفيـة قماشـية مكتـوب عليهـا (حفـل تكريـم المعلـم المثـالى)

يجلـس عـلى المنصـة ثلاثـة أشـخاص تتـورد خدودهـم بالدمـاء ولمعـان بيـاض ناصـع يرتـدون بـدلا وكرفاتـات أنيقـة، ضـوء أصفـر ينبعـث مـن كشـاف كبيرخلـف كاميرا التصويـر، تقدمـت خطـوات كان الوزيـر يكـرم بعـض المدرسـين، رأيـت قفـا مديـر المدرسـة مـن الخلـف وكانـت هى تجلـس إلى جـواره، حدثـت نفـسي

:إنها فرصتك أن تجهز عليهما الآن

كان صوت المنصة يعلن عن أسماء المكرمين، بينما كان فستانها الأزق ذو الترتر يتلألأ مع ضوء الكشافات وهى تصعد إلى المنصة

تمت

القاهرة ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٧

أشياء تافهة

ما إن تضيع لبيسة القلم الجاف أو ينتهي عمرها الافتراضي المؤقت بكسر المشبك أوعدم قدرته على ضم مقدمة القلم، فهي على كل حال صناعة صينية ردئية.

لحظتها تبدأ المعاناة الحقيقية مع هذا القلم الذى يصبح عبئا ثقيلا، يُخيل إليّ أنه رمح يتحين الفرصة لتسديد طعنة غادرة لصاحب النصيب، فى الغالب لا أحمل حقيبة، ومسألة وضع الحاجات والأقلام فى درج المكتب شىء غير مأمون، ويعد أمرا غير محمود العواقب، فربما يطفح القلم على الأوراق والملفات، وهو فى درج المكتب ويتسبب فى كارثة كبيرة.

كما أنه من المستحيل أن أضع قلما بهذا الشكل فى جيب قميصي أوالبنطال، لأنه فى الغالب ماسينتهي بكارثة محققة، ولهذا فإنني أعمد فى مثل تلك الحالة على مجموعة من الحيل للتخلص من هذا القلم اللعين.

وتبدأ تلك المخططات الخبيثة التى أديرها من مكتبي القاطن بالدور العاشر من مبني إدارة التأمينات والمعاشات بمجمع التحرير المواجهة للجامعة الأمريكية، وعلى بعد أمتار من مجلس الشعب ومجلس الوزراء، ومبنى وزارة الداخلية فى لاظوغلي.

أترك القلم على طرف المكتب الأمامي، متجاهلا أى حركة مصطنعة من أحد السادة الزملاء المتنطعين فى المصلحة أو الجمهور الذى يطن فى أذنى كذباب الصيف طوال اليوم، بالضرب عليه فى جيبه بعد أن يطلبه لقضاء حاجته، معتقدا أنني غير واع أو مدرك لما يقوم به، فأنغمس فى أوراقي، لا أحاول شد انتباهه حتى ينسحب من جوار المكتب فى هدوء، وقد تأسرني فى عينيه نظرة ارتباك وأنا أتابعه من خلف زجاج النظارة المقعرة.

ومرات قد يستفزني أحدهم بابتسامة بلهاء، وهو يعيد لي القلم مرة أخرى مقدما آيات الشكر والامتنان، أى نوع من البشر أولئك الذين يعتقدون فى ترك صيد ثمين بعد أن يكونوا قد أقتنصوه، مثاليات يتصنعونها، يحاولون أن يجملوا عجزهم أو قلة حيلتهم، وربما الخوف من أن أهجم عليه، فى قفزة مفاجئة فأستخلص صيده الثمين، أعتقد أن الجبن يصنع منا أناسا مثاليين فى بعض الأحيان، على الأقل هذا ما نقنع به ذواتنا.

أحلف عليه بأغلظ الأيمان، وبقلب جامد، أتصنع فضيلة الكرم الزائدعلى غير العادة، بعدم عودة القلم، إنه لايلزمني وعليه أن يستبقيه معه قد ينفعه فى أى وقت، فيزيدني استفزازا حينما يكرر شكره وامتنانه وتقديره، ويضع القلم على المكتب ثم يمضي، فتتحرك شفتاى خلفه وكأنها تجذبه من أم قميصه أو تطبع على قفاه قلما أوبصقة.

لكنها لحظات حتى يقع صاحب النصيب فى الّشَرك، ويكون قلمي العزيز من نصيب صاحب القسمة، كقرد مسلسل وقف أمام المكتب يتصنع البشاشة بابتسامة صفراء فاقع لونها تثيرالاشمئزاز، يتفصد من جبينه عرق نازف، ورائحة فم عطنة طالتني على بعد أمتار، يترددعلى المكتب منذ اسبوع يسعى فى إنهاء أورق معاشه المبكر، منذ أن طالعت سحنته لأول مرة شعرت بعدم ارتياح، كان منظره مقزز لنفسي، حاول أن يعزم عليّ بسيجارة كليوباترا بوكس، فنظرت له نظرة قرف وأنا أقول له : لاأدخن هناك أناس عندما تلقاهم منذ الوهلة الأولى تشعر بعدم الارتياح لهم، ولايتغير هذا الإحساس حتى مع مرور الوقت، ولاتعرف لذلك سببا محددا.

كان فى سبيله لانهاء التوقيعات اللازمة فاجأني بطلبه الذى فتح شهيتي، وربما لأول مرة لا أنظر له بقرف وإن كنت أحاول عدم المبالغة فرحا كردة فعل لطلبه، فأشرت

لـه بموضـع القلـم دون أن أنظـر لـه وكأننـى مشـغول فى حـل لغـز السـودوكو، فاقتنصـه وهـو يتمتـم بالشـكر والعرفـان، وأنا قلبـي يبـظ مـن مكانـه يتابـع مـا سـيفعل، راهنـت نفـسي أنـه سـيضرب عليـه، تلـك النوعيـة السـمجة مـن البـشر يحاولـون اقتنـاص أي شـيء مـن الدنيـا، خشـيت أن أخـسر الرهـان مـع نفـسي فقمـت وخرجـت مـن بـاب المكتـب تصنعـت الذهـاب للحـمام، حتـى تكـون الفرصـة سـانحة لـه فى إتمـام مهمتـه، مـا أروع أن تشـاهد حرامـي يـسرق.

قـرأت يومـا أن السرقـة ربـما تكـون هوايـة وليسـت للعـوز، فالعاملـون فى الفنـادق الكبـيرة دائـما مـا يشـكون مـن نزلائهـم الأجانـب وعليـة القـوم، حينـما يكتشـفون سرقاتهـم لأشـياء بسـيطة وربـما تكـون تافهـة مثـل ملعقـة أو شـوكة أو مـلاءة سريـر، صابونـة وش، هـى أشـياء رغـم تفاهتهـا ولا تسـاوى بقشيشـا يدفعـه هـؤلاء لهـم، لكنهـم يدمنـون فعـل ذلـك، يشـعرهم بلـذة الاقتنـاص أن تأخـذ شـيئا فى الخفـاء بعيـدا عـن أعـين النـاس، أن تـسرق شـيئا ليـس لـك ليـس مـن أجـل العـوز بـل مـن أجـل المتعـة.

مـا إن رأيتـه يتحـرك خـارج المكتـب حتـى دلفـت سريعـا كـى لايـراني وتصنعـت الانشـغال بأوراقـى وأنـا فى قمـة النشـوة، أتخيـل قميصـه أو بنطالـه، وقـد أحـدث القلـم منـزوع اللبيسـة بـه شـخبطات ودوائـر وأشـكال لاحـصر لهـا، والطامـة

الكبرى لو أن القلم طفح وتحول الجيب إلى بركة وحلة من الحبر، هنا تكون الخناقة حجمها أكبر وربما تصل بصاحبنا لقضاء ظهيرة تعيسة أو ربما يمتد أثرها حتى نهاية اليوم.

تتسع مساحة الابتسامة على شفتي وأنا أتذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه مرتجي زميلي في شئون العاملين، وكان قد ضرب على القلم بعد أن قمت بالتوقيع على كشف المرتب فطلب منى تركه حتى توقيع باقي الموظفين، وكانت الكارثة التى علمت بها بعد اسبوع من انقطاع مرتجي عن العمل بسبب نقله للمستشفى أثر ارتفاع مفاجىء فى ضغط الدم بعد أن تمكن القلم اللعين من تسويد أوراق الألف جنية المرتب الذى قبضه مرتجي، فكانت الفاجعة التى لم يتمالك نفسه حيالها، وبذلنا محاولات عديدة مع البنك لقبول تغيير الأوراق المالية التى محى حبر القلم كل معالمها حتى استطعنا بعدها بشهر من استرداد المبلغ، ربما شعرت يومها بندم لأنني كدت أتسبب فى كارثة فعزمت على عدم تكرارها .

لكنها حدثت بشكل لا إرادي وغير مقصود هذه المرة، بعد أن تجاهلت قلما منزوع اللبيسة طلبه منى مدير الإدارة، لم أتمالك نفسي من نشوة الانبساط، وأنا أخبط ببطن يدي صدر المكتب، لحظة تذكري بموقف سعادة المدير بعد أن تعمد أن يضرب على القلم بعد توقيعه بعض الأوراق

،كنت أكتم ضحكة بارزة وأنا أنصرف من مكتبه وأنتظر بين لحظة وأخرى صراخاته بعد أن تحدث الكارثة، ولما مر اليوم بسلام قلت ربما هناك خطأ قد حدث، فقلمي لايخطئ مفعوله أبدا.

فما إن بدأت تدب أُقدامي درج المصلحة فى اليوم التالى حتى فاجأني عم فراج فراش المصلحة بأن المدير هنا من الفجر وشعره منكوش ووشه مقلوب، وبيشخط ويزعق فى كل من يقابله، فتأكدت من وقوع الطامة الكبرى، تحاشيته قدر المستطاع فى ذلك اليوم، لكنه فأجأنى بزيارة للقسم فى منتصف النهار، كانت لاتزال عيناه تطلق شرارها فتواريت وراء ابتسامتى البلهاء، متمتما ومؤمنا خلف كل قراراته، وقد أيقنت بوقوع كارثة القلم اللعين فقد غير المدير قميصه الأبيض الثلجي بقميص مقلم على غير العادة التى يكمل فيها القميص اسبوعا دون أن يبدله بغيره، وكان مما استفزه أكثر أنه لم يصدر مني ثمة اعتراض لأي من قراراته.

بعد ساعات وصلت الأنباء عن إقالة وزيرة التأمينات والشئون الاجتماعية وتغيير فى قيادات الوزارة، هي أشياء تحدث فى الغالب فى بلدنا دون أن نعرف لها أسباب أو نهتم بها، فقط ما يشغل بالنا من سيكون المدير الجديد للمصلحة وماهو نظامه، وطبعا لكل حبل جديد شده تستمر أياما أو أسابيعا ثم تعود الأمور لمجراها الطبيعي.

فى أخر يوم للمدير المُقال لم أتمالك نفسي من طعنه بخنجر الرذالة، فسألته كنت نسيت على المكتب قلمي من يومين، فقال لي للأسف معذرة سامحني فيه، كان عندنا اجتماع مع الوزيرة فى نفس اليوم لمناقشة قرارات هامة وأخذت القلم معي وعند التوقيع على القرارات ناولت القلم لسكرتيرعام الوزارة فلم يعيده لي واستحيت أن أطلبه

لم أتمالك نفسى من الضحك، وراحت تزاحمني أفكاري وأسئلة غير منطقية، هل يعقل هذا؟ أيكون قلمي هو السبب؟

بعد شهر من الواقعة كان المدير الجديد قد تأقلم على وضع المؤسسة وصارت الأمور على مايرام، وعاد كل شيء طبيعى كما كان فذكر لى، وهو يقهق متجملا بخفة دم كدم البق وهو يعيد لي القلم بعد أن وقّع على الإجازة الاعتيادية

: خذ قلمك معك، إنّ قلما كهذا أقال وزارة، ألا تعرف الحكاية

تمت

القاهرة ٢٥/ ٨/ ٢٠١٥

البقاء لله

:خير أللهم أجعله خير

فتّح مهاب عينيه بتثاقل وفزع على أثر جرس الهاتف المحمول الذى يرن فى تلك الساعة المتأخرة من الليل، تحسس فى ظلام الغرفة مكانه على الضوء الصادرمنه فأمسك به وحدق في اسم الطالب، ترى من يطلبه على الرقم الخاص، كان قد أغلق كل أرقامه أمس ليحصل على إجازة طال انتظارها، اكتسى وجهه بقلق شديد طيّر من عينيه آثار النوم المتبقية، وهو يتمتم

سيادة اللواء، فى تلك الساعة المتأخرة :

ألو، مساء الخير يافندم

كان صوت سيادة اللواء عاليا يتردد صداه فى الغرفة، فراحت تتقلب بجواره بقميص نوم بمبى اللون وذراعين

بيضاويين وشعر أسود متناثر على الوجه والكتفين، وفخذين عاريين

: أين أنت يا أفندى، الدنيا مقلوبة عليك من الصبح وأنت نائم

ينظر إليها بجواره وقد استشعر الحرج، يرد على الهاتف

: أسف سعادتك، أنا أجازة يومين بمارينا

: هل عرفت أن سيادة الوزير مات

يزم مهاب شفتيه ويحرك يده فى الهواء بقرف ويتمتم فى سره

: وهل هذا وقته

لكنه يتذكر سيادة اللواء على الهاتف وقد جاءه صوته من السماعة

: ألو ألو، يامهاب

: معك يافندم، معك لاحول ولا قوة الا بالله، البقاء لله يافندم

كانت زوجته قد اعتدلت إلى جواره، تحاول إبعاد شعرها المهوش عن وجهها وهى تتثاءب وقد بدا على وجهها القلق، بينما كانت آخر كلمات اللواء

: مهاب، ساعة وتكون عندي علشان نجهز لموضوع الجنازة

: يافندم أنا فى مارينا، أمامي على الآقل أربع ساعات حتى أكون عند حضرتك

جاء صوت اللواء حازما هذه المرة

: تصرف يا أفندي، المهم تكون قدامي مع طلعة النهار، ولاتنسى وأنت فى الطريق تجري اتصالاتك لعمل كل الترتيبات، وحدد ميعاد الخرجة وكلمني حتى أبلغ مجلس الوزراء

: تحت أمرك يافندم

لمح زوجته إلى جواره فزعة فاحتضنها وطبع قبلة على رأسها وهو يجيب على سؤالها

: آسف حبيبتي، كما سمعت الوزير مات، ولازم نسافر الآن، حتى أجهز لترتيبات الجنازة

بدا على وجهها الامتعاض وهى تزم شفتيها ولاتزال أثار النوم عليها ،بينما اتجه هو إلى الحمام يجرجر شبشبا يُسمع له صوت فى سكون الغرفة

طريق طويل ومظلم والوقت يمر، كانت إلى جواره نائمة، بينما هو مشغول بمكالماته التيلفونية التى لم تنقطع منذ خرجه من الشاليه،، يحاول أن يتذكر كل شيء، كل الترتيبات

اللازمة، النعى فى الجرائد، الجنازة العسكرية، تأمين موكب الجنازة وخط سيرها، ترتيبات وبروتكول حضور السادة الضيوف من السفراء وممثلى القنصليات والجاليات الأجنبية،

كان الوقت متأخرا بالكاد استطاع أن ينشر نعيا فى آخر طبعة بالجريدة الرسمية، حاول الاتصال بعائلة السيد الوزير، علم أن زوجة سيادته على متن الطائرة العائدة من باريس وستصل فى العاشرة صباحا، لقد أصبح أمر تأجيل موعد الجنازة للغد أمرا محتما، حاول الاتصال بسيادة اللواء ليخبره بالأمر لكن الوقت قارب على مشارف طلوع الفجر، ساعات ويصل مكتبه ويبلغه بالأمر من هناك،

كانت لاتزال بجواره نائمة وقد لاح من بعيد الضوء الأبيض فى الأفق، أشعل سيجارة وفتح قليلا من زجاج النافذة بجواره يحاول استنشاق هواء الصبح، القاهرة ٤٠ كيلو أعلنت لافتة الطريق، دقت الساعة السابعة هنا القاهرة، تصدرخبر وفاة الوزير نشرة السابعة، لكن مذيعة النشرة استفاضت بأن ميعاد تشيع الجنازة فى العاشرة صباحا، وبحضور معالى رئس الوزراء ومندوب الرئيس ولفيف من الوزراء والسفراء.

أفزعها صوت الفرملة المفاجئ وكاد وجهها يرتطم بزجاج السيارة أمسك بعجلة القيادة فجأة، توقفت

السيارة تماما بعد أن قطعت مسافة مائة متر زحفا، يضرب بيده على عجلة القيادة فيأتيه صوتها مرعوبا

: ماذا حدث، السيارة كادت تنقلب بنا

: كيف يحددوا ميعاد الجنازة، دون أن تنتهى الترتيبات، أخطاء الإعلام التى لن تنتهي أبدا

: قد يكون سيادة اللواء هو من حدد الميعاد

: سيادة اللواء يعرف أن تحديد الميعاد، بعد انتهاء كل الترتيبات، لابد وأن أتصل حالا بمدير الإذاعة عليه أن يعدل الخبر فورا قبل أن ينتشر

كان جرس الهاتف يرن ولم يسمعه ولكن لفت انتباهه ضوءه والمكالمة التى لم يرد عليها أحد، فالتقطه فإذا هى مكالمة من سيادة اللواء

: ألم أقل لك هناك شىء خطأ، أكيد سمع بخبر هذا الميعاد فى الإذاعة، سأخبره بضرورة أن يتخذ موقفا مع مدير الإذاعة

: صباح الخير يافندم

: أنت فين يا أفندى لماذ لاترد على التليفون؟

: يافندم أنا أسف لم أسمع جرس الهاتف، أنا اقتربت

مـن القاهـرة عنـد البوابـات، سـيادتك أكيـد سـمعت نـشرة الإذاعـة، هـذا الخـبر عـار مـن الصحـة وحضرتـك لابـد وأن تتخـذ موقفـا مـع مديـر الإذاعـة هـذا

: يامهـاب، يـا مهـاب، اسـمعنى، الخـبر صحيـح ،الرياسـة هـى مـن حـددت الميعـاد

وقفت الكلمات فى حلقه وتغير لون وجهه وتقطعت كلماته

: الرياسـة، ولكـن كيـف، لم يتـم عمـل أي ترتيبـات، هـذا غـير ممكـن، مسـتحيل

: مهـاب لايوجـد فى عملنـا شـىء اسـمه غـير ممكـن و مسـتحيل

:يافندم، فى ترتيبات كثيرة لم تتم

يقاطعه صوت اللواء ولايعطيه فرصة للرد والسماع

:يـا مهـاب، الريئـس ولفيـف مـن الـوزاء، سـوف يسـافرون اليـوم بعـد الجنـازة مبـاشرة خـارج البـلاد، ومـن غـير المعقـول أن تسـافر الحكومـة دون أن تشـيع جثـمان الوزيـر

: يافندم

بنبرة حازمة أغلق الخط بعدها مباشرة

:مهاب، انتهى الكلام، نفذ الأمر وتصرف، اعمل أى حاجة

ألقى بالهاتف على تابلوه السيارة وهو يضرب بكلتا يديه على عجلة القيادة

: اهدأ يا حبيبى

: كيف لى أن أهدأ، يريد أن أنهى الترتيبات الآن، باقى ساعات

: طالما الرئاسة هى من حددت الميعاد فأكيد عندها ترتيب، عندما تصل بالسلامة ستجد كل شىء على مايرام

هكذا جاءه صوتها رقيقا من جواره، وقد التمعت عيناها وأحس بحنو صوتها فأعطاه جرعة من الحماس، تحركت السيارة وقد نقشت السابعة والنصف فى الساعة الرقمية على لوحة التابلوه، فانطلق كالسهم، تجاوز كل الكمائن والإشارات، كانت الساعة تدق الثامنة والنصف وهو أمام فيلا الوزير، الجو هادئ، الحراسة وبعض قيادات الوزارة، بعض الخدم، سأل عن أقارب السيد الوزير همس فى أذنيه مديرمكتب الوزير

: الباشا الله يرحمه كان مقطوع من شجرة

هز مهاب رأسه هو يعرف ذلك جيدا، ردد سيادته أمامه أكثر من مرة كرهه لأقاربه كانوا دون المستوى

وكثيرا ما رفض مقابلة أناس منهم بل معظمهم، كانوا فلاحين فقراء، أكد لي واحد منهم أنه ذبح جديا وفرّقه على أهالى القرية عندما سمع بأن ابن خاله أصبح وزيرا، فلما حضر مكتبه رفض مقابلته، فعاد خائب الرجاء

تذكر معاد وصول الهانم حرم السيد الوزير فوجه كلامه لمساعده

: أرسلت سيارة للمطار لإحضار الهانم

: تمام يافندم، السيارة فى المطار من ساعة

يشعر بدوار خفيف، وتقلص فى المعدة، ربما أصابه البرد، بقلق يتمتم

: ربنا يستر

كان القلق باديا عليه، فلابد وأن يلقاها فور وصولها، هى من سوف تحدد له أشياء كثيرة، بخصوص ترتيبات الجنازة والدفن، تذكر حفل زواج الوزير منها، فقد ظل سيادته عازبا طيلة حياته ولم يتزوج إلا حينما أتته الوزارة، كانت ابنة أحد كبار رجال الأعمال والبزنس، تعلمت فى السربون، كانت تصغره بعشرين عاما، كان زواج مصالح، وزير شاب طموح، وعائلة غنية، وفتاة جميلة لاهمّ لها سوى شلة النادي والحفلات السوارية والشوبنج، لم تنجب

منـه، انتبـه لجـرس الهاتـف المحمـول كان سـيادة اللـواء بصوتـه الجهـوري

:موكـب رئيـس الـوزراء وكبـير اليـاوران والـوزراء تحـرك الآن، تـم تقديـم ميعـاد الجنـازة

: يافندم، لم نفعل شيء، الهانم لم تأتِ بعد

حالة من الذهول وتصبب عرقا

: والجنازة العسكرية

يأتيه صوته حازما وبعصبية شديدة

: يامهـاب ليـس لدينـا وقـت، طائـرة الرئيـس بعـد سـاعتين مـن الآن

كان الطريـق إلى المدافـن ضيقـا وغـير ممهـد بينـما كان الجثـمان يرقـد فى صنـدوق فخـم مـن خشـب الأبنـوس والـزان بمقابـض معدنيـة لامعـة يلفـه علـم مـصر وباقـات مـن الزهـور عـلى سـيارة عسـكرية تجرهـا الخيـول، تتحـرك خلفهـا سـيارات تشـبه بعضهـا بلونهـا الأسـود ،زجاجهـا الفاميـه لايظهـر منـه شـيء ،وسـيارات شرطـة هنـا وهنـاك وعـدد مـن السـيارات الفارهـة الجيـب شـيروكي والهمـر والجيمـس.

يتحـول الطريـق إلى المدافـن كقاطـرة طويلـة مـن السـيارات

يتقدمها موكب الجنازة، كان مهاب يستقل سيارته ويسير خلف الجنازة وقد فاجأته مأذنة جامع على الطريق فتذكر على الفور الخطأ الكبير الذى وقع فيه بسبب هذا الاستعجال الذى قضى على كل الترتيبات المعدة للجنازة، فرفع هاتفه يطلب سيادة اللواء

: خير يامهاب

: مصيبة، يافندم

تغيرت ملامح اللواء وقد أصابه الفزع

: إرهابيون سيضربون الموكب

: لايافندم، الموكب مؤمن تماما، لكن الموكب تحرك فى إتجاه المقابر دون أن نصلى على الوزير صلاة الجنازة

شعراللواء بارتياح مع تأكيد تأمين الموكب، لكنه استدرك مقولة مهاب فشعر بكارثة تحدق به

: ماذا تقول يا أفندي، إنت حتتحول لمحاكمة عسكرية فورا

: تحت أمرك يا فندم، المهم نعالج هذه الكارثة أولا، لابد وأن يتوقف الموكب حتى نصلي عليه

: توقف الموكب يعرضه للخطر ياحضرة الضابط، أنا متأكد أنك ستكون سبب نهاية خدمتى

: يـا فنـدم ممكـن نصـلي عليـه فى أقـرب جامـع أو زاويـة فى طريقنـا للمدافـن

: تمـام، حتـى تصبـح فضيحتنـا بجلاجـل، وتخـرج علينـا غـدا كل جرائـد المعارضـة، وتقـول نسـوا صـلاة الجنـازة عـلى الوزيـر، فصلـوا بـه فى زاويـة بالمدافـن، ثـاني يـوم نتقـدم أنـا وأنـت للمحاكمـة

لحظـة صمـت سـادت بـين الطرفـين فى محاولـة للبحـث عـن حـل للمشـكلة، ثـم يـأتي صـوت اللـواء عـلى الهاتـف

: هل يعرف أحد بهذا الموضوع غيرك

: لا

لحظة صمت بسيطة تصحبها غمغمة

: تمـام، إذا ندفنـه مـن غـير أن يـدري أحـد، هـو لم يكـن يركعهـا، حتـى يصـلى عليـه

: مش ممكن يافندم هذا حرام

: هل لديك حل آخر لهذه المصيبة

: عندي

:أنا زهقت منك ومن حلولك

: يافندم فى الطريق للمدافن توجد قرية اسمها عزبة ميمون القرد، بها مسجد صغير، من الممكن تقف الجنازة بها ونقوم بالصلاة على معالي الوزير، ونقول أن هذه هى وصية السيد الوزير أن يصلى عليه فى قريته وبين أهل بلدته

وقد انفرجت أسارير السيد اللواء وشعر بوجاهة رأى معاونه

: تمام، لحظة، أنت قلت لى أن اسم القرية ؟

: عزبة ميمون القرد ياباشا

: موافق بشرط تغييرالاسم للقرية النموذجية لعزبة السيد الوزير

: كله تمام يافندم

كان الطريق إلى عزبة ميمون القرد قد صار ممهدا، سيارة رش مياة تطوف شوارعها الأمامية، أشجار الفيكس تنتشر هنا وهناك، بيوتها الطينية القديم أخذت لونا أبيضا، فتحت ماسورة المياه الرئيسة المغلقة من الحى منذ شهور، فرش المسجد الصغير بسجاد عجمي وفرغت فى جوانبه زجاجات من البرفان الباريسي، وأشعلت فيه أعواد البخور.

وقف أهالي القرية على جانبى الطريق، صار المشهد

جليلا وجنائزيا يليق بجنازة السيد الوزير، شعر معها سيادة اللواء بغبطة، وكاد أن يطلق ابتسامة لولا خشيته من لقطات كاميرات الصحفيين التى تنتقل هنا وهناك، اقترب مهاب من رئيسه منتظرا تهنئته على هذا الإنجاز، فنهره اللواء بسؤال وهو يجز على أسنانه

: دورات المياة سئية للغاية، كيف سيتوضأ الوزراء يافندي

جاء رد مهاب قاطعا

: يافندم، مصر كلها تعرف أنه لايوجد وزير فى الحكومة ينزل من بيتهم من غير وضوء، يافندم الحكومة كلها طاهرة

لم يتمالك سيادة اللواء من إخفاء ابتسامة مكتومة فأردف

:فعلا والوزير الغير طاهر يروح...

كانت سيارة نقل النعش قد توقفت أمام باب المسجد الصغير وهرع الناس فى رفع النعش إلى داخل الزاوية، لمح سيادة اللواء وجود نعش أخر فى مقدمة الزاوية بجوار المصلى

: ما هذا يامهاب

: متوفى من أهل القرية يافندم

وقد عاد له تبرمه وضيقه وهو يضعط على أسنانه

: فى نفس ميعاد خروج جنازة الوزير

: يافندم رب ضارة نافعة، لولا هذه الجنازة ما خرجت الناس للشوارع

يبدى اللواء نوعا من الاقتناع ولكنه يتوعد مهاب

: حسابك معى بعد أن ننتهى من هذه الجنازة

:تحت أمرك يافندم

وضع المشيعون النعشين فى جانب من المصلى ووقفوا صفوفا خلف وزير الأوقاف يؤدون الصلاة، كان سيادة اللواء فى آخر الصف، حينما هبط مهاب على أذنه مع التسليمة الثانية

: كارثة يافندم

أدار سيادة اللواء رأسه لمساعده وقد اشتاط غضبا مكتوما

: سألت الهانم زوجة سيادة الوزير عن مدافنهم، قالت إن سيادة الوزير ليس له مدفنا، كان يتشاءم من هذه الأشياء

: وأين سندفن سيادته يامهاب

: بسيطة يافندم، فى مدافن الصدقة

تمت

القاهرة ١٩/ ٦/ ٢٠١١

علاقات رقمية

لما تعددت محاولاته الفاشلة فى إقامة علاقة قوية تناسب إمكانياته ووضعه، أدرك أنه لامناص من حلول بديلة، علاقة يكون فيها هو الرقم المطلق، كثرعطاؤه، فتمنى أن يحصل على الحب دون أن يقدم الثمن، أن يصبح غاية وهدفا، أن يدخل فى تجربة تدثره بالرغبة كل مساء، وتتبخر مع أول شعاع ضوء، فيغتسل ويصلى الصبح، ويهم لعمله فى الورشة كل صباح، بينما يلتهم فى طريقه طبق الفول ورأس البصل، وثلاث أرغفة مدعمة.

فى طريق العودة كان يقلب فى الهاتف المستعمل الذى اشتراه اليوم من زميله على سبيل التجربة بثمن بخس، بينما يقبع هاتفه القديم فى جيب بنطاله الجينز، طريق العودة طويل ويمكنه نقل الصور والأرقام، وكذلك تجربة الخط الجديد، لاشك ستكون الصور ومشاهد الفيديو

عليه أوضح، جرب الاتصال من رقم القديم ليختبر الصوت تحدث إلى نفسه من رقم إلى رقم، صار له رقمين، فما المانع أن يكون له حسابين.

زادت الرغبة، أعجبته الفكرة أنشأ صفحتها أطلق عليها اسم حنان

(اكمل باقي البيانات، اختر صورة)

الجنس أنثى، مطلقة،خمس وثلاثون عاما، كانت بيضاء كالثلج وعيون خضراء، وشعرذهبي لامع، طويلة ناهدة الصدر، ها قد صورها ثم أطلقها فى العالم الافتراضي .

من جهازه القديم مارس هوايته الليلية من مؤشر البحث عن صداقات جديدة، عندما ضغطت يده حرف الحاء، كانت صورتها تزين الصفحة، ومشاهدات عدة فى لحظات ،أرسل طلبا فجاء الرد بالموافقة

فاجأه سؤال :ممكن نتعرف؟

هم سريعا ينقل أنامله بين الأحرف والأرقام، كان أكثر صدقا مع نفسه هذه المرة، فقط لم يشأ أن يكتب مؤهله الجامعي.

لكنها غاصت معه فى لجة وجد أفرغت كل سنين الرغبة عنده، كانت أشعة الشمس تطرق نافذة الغرفة، وقد اخترقت عينيه، إنه ميعاد الوردية، مارس عاداته الصباحية بعينين لم تذق طعم النوم، نهره صاحب الورشة أكثر من مرة قبل ميعاد الانصراف، قرر النوم سويعات، لكنه وجد النقطة الخضراء تضيء صفحتها، فهم بسؤال، ثم طلب لقاء.

فى محطة مترو التحرير جلس ينتظرها، كان الجو لطيفا بفعل التكييف المركزي، لكنه بعد ساعة ملّ، حاول أن يرسل لها رسالة، لكن الشبكة غير متوفرة، كان غريبا أنه لم يحصل منها على رقم الهاتف

فجأة منْ بجواره سألت أنت ...، بلهفة قال : حنان، هزت رأسها، صافحها، على السلم الكهربائى كان قد أحاط بيده كتفها، ويدها خصره، ومضى إلى أعلى، كان هواء الصيف ساخنا عندما قررا أن يجلسا بجوار النصب التذكاري لشهداء الثورة.

تمت

القاهرة ٢٥/ ١٢/ ٢٠١٥

رغبة مكبوتة

للمرة الأولى يشعر بثقل حركة عقارب الساعة فى نهاية هذا النهار الطويل على غير العادة، كانت الأيام والأسابيع والشهور تمر هكذا دون أن يحسب لها، ودون أن يشعر بها، منذ أن لزم القرية عقب تخرجه من الكلية، ينتظر خطاب التعيين أو فرصة عمل وعده بها أحد أقاربه نسيب عضو مجلس الشعب عن الدائرة، يقضي ليله متنقلا بين شوارع القرية القليلة فى زيارة هنا، وجلسة هناك، حتى تفرغ الشوارع من المارة، ويخيم الصمت على بيوت القرية القديمة، يعود إلى منزله القائم فى أطراف القرية على قطعة أرض اشتراها والده رحمه الله ،عقب عودته مباشرة من بلاد الخليج التى عمل بها سبع سنوات.

فى الغالب ما تكون والدته نائمة شأنها شأن نساء القرية اللاتي يفضلن النوم بعد صلاة العشاء والاستيقاظ المبكر

مع خيوط الفجر، أخوه الصغير بالتأكيد لايزال يستذكر دروس الثانوية، طعام العشاء جاهز ومتروك على الطبلية، يتنقل بين محطتي التلفاز الأبيض والأسود، تخبره والدته إن هذا التلفاز هو ثاني تلفاز دخل القرية كان قد أحضره والده فى أول نزلة له من الخليج، لكنه الزمن.

تبهره الصورة الحية الملونة عند أصدقائه وأقاربه وفى المقهى والأجهزة ذات الشاشات الكبيرة، يرى سحر الوجوه وجمال الأجساد النضرة تسريحات الشعر، الميكياج الصاخب، خصر الممثلات فى الأفلام والمسلسلات التى تعرض فى ميعادها الذى بات يحفظه عن ظهر قلب ويترقبه كل مساء وفى أيام الخميس والآحد

نادي السينما برنامجه المفضل يعرض الأفلام الأجنبية كل سبت لم يكن مغرما ككل شباب القرية بأفلام المغامرات والحروب والعصابات التى غالبا ما تشد فى أحداثها ومفاجآتها جمهور المقهى، كان يتابع الأفلام والمسلسلات الرومانسية، ويتابعها فى الغالب فى البيت على الجهاز الأبيض والأسود، لأنه يكون فى حالة خاصة من النشوة والمتعة واللذة .

مع نهاية الإرسال يشد لحاف الصوف على جسده على الكنبة وينام، يصحو على صوت أمه وقد عجنت وخبزت

وحضّرت الفطار يتناول إفطاره ثم يمضي إلى القيراطين مسافة نصف كيلو متر ليحش حِمل برسيم أو الدّراو للجاموسة والعجل وعنزتين صغيرتين يغير لهما الماء، وفى أيام يكري من ينظف الزريبة، يغير ملابسه ويركب البسكلته وينطلق للسوق، أو يقضي بعض الحاجات يشتري الجريدة اليومية، مع أذان الظهر، يعود ليتناول الغداء مع أخيه العائد من المدرسة ويحظى بقيلولة هادئة، يستيقظ بعد أذان العصر، يشقّر قبل خروجه على الزريبة ثم يغير ملابسه ويبدأ جولته المسائية يحضر مناسبة عائلية، يزور مريضا قريبا أو صديقا، يجلس على المقهى بعض الوقت يشرب حجر المعسل، يمر الوقت، حتى موعد العودة للبيت ثم النوم.

لكن صباح هذا اليوم يشعر أن هناك شيء مختلف، استيقظ مبكرا على غير عادته، مارس طقوس يومه المعتادة، شعر بسخونة الهواء وهو عائد بعدما اشترى الجريدة اليومية وقرأ الخبر فى النشرة، كم انتظر هذا اليوم، أخيرا سيشاهدها وحده، سيلتقي بها فى غرفته سيعايش كل لحظة معها إنه يعرفها جيدا يتذكر كل لحظة .

القصة كاملة يحفظها عن ظهر قلب منذ أن شاهدها لأول مرة فى السينما، كم حكى لأصدقائه عنها، جسدها

البض، خصرها الذى يشبه عود الذرة، قامتها الفارعة كنخلة، شعرها السارح فى الهواء، اخضرار عينيها الذى يشبه لون عين القطط البرية، آهات الرغبة، وهى تتقلب على سريرها، ينداح قميصها البمبي فيكشف عن فخذها العاري، مؤخرتها المستديرة، تتخيله بجوارها، فتذوب فى آهات النشوة واللذة، يأكل شفتيها الغليظتين، يمتص ريحق شهدها من طرف لسانها الوردي، يضمها بيده الضخمة يعتصرها تحته، يهتز السرير النحاسي القديم بشدة، تعلو الأصوات مع الآهات المتوالية، يذوبا فى ظلام الشاشة الكبيرة، لم تفارق تلك المشاهد عينيه لحظة منذ قرأ اسم الفيلم فى خريطة البرامج اليومية.

ميعاد عرضه مناسب جدا بعد العاشرة مساء، حيث تبدأ سهرته الليلية بعد أن يأوي الجميع للنوم، سيعيش معها اليوم، إنها محبوبته التى يعشقها، كان يبحث عنها فى كل امرأة وفتاة قابلها فى الجامعة الإقليمية التابعة للمحافظة الجنوبية، فى نساء وبنات المركز، قريباته فى القرية، للأسف لاتوجد واحدة منهن تشبهها، أو حتى تستطيع أن تحرك مشاعره وتثير رغبته المكبوتة، وتحديدا فى هذا الفيلم، ينظر لساعته لايزال هناك وقت طويل، الشمس تتمايل على أطراف جريد النخل، كأنها تخرج لسانها له وتأبى أن يجيء الليل .

إنه يتحرق شوقا يذوب رغبة مع كل ثانية تمر، فقد رتب كل شيء منذ هذا الصباح، فقد أقنع أمه بضرورة الذهاب لأخته التى سافر زوجها منذ أيام للاطمئنان عليها والمبيت معها فى القرية المجاورة، بينما سينام أخيه الأصغر فى ميعاده كل يوم قبل العاشرة ولامانع بعد نومه من نقله لغرفة والدته حتى يختلي بالغرفة منفردا ويشاهدها وحده دون أن يكون معه أحد، يختلي بها لنفسه.

يتجسد شخصية بطل الفيلم، بل وكل الرجال الذين سيتناوبون عليها، يرى نفسه فى كل واحد منهم، حتى مشهد الاغتصاب، يرى نفسه فيه، لحظات الحب، والرومانسية، مشاهدها وهى تستحم عارية، وحتى حينما ترتدي قميص نومها البمبي، تقلبها على السرير الفارغ من دفء الرجل، مشاهده معها وهو يذوب فيها وتذوب فيه

عقب أذان المغرب كان عليه أن يذهب للعزاء فى اليوم الثالث لجنازة أحد رجال القرية، بعدها سيزور صديقه المريض فى بيته، ثم سيمر على القهوة، تذكر أن عليه الأن حلب الجاموسة فقد ذهبت أمه لأخته بناءا على طلبه، ثم يبيّت الأوز والفراخ فى العشة ،هكذا أوصته أمه قبل أن تذهب.

إنها أشياء كثيرة ومملة، يضيق بها كثيرا، وهو ينظر كل لحظة لساعته يرقب حركة عقاربها البطيئة، لم يمر على

القهـوة عـاد مبكـرا، كان أخـوه يذاكـر دروسـه، أعـد لأخيـه طعـام العشـاء برغـم احساسـه بالشـبع، كان بإمـكان أخيـه أن يحـضّر لنفسـه العشـاء، لكنـه أراد ألا يضيـع وقتـه، حتـى يتنتهـي مـن مذاكرتـه وينـام مبكـرا، فتـح جهـاز التلفـاز عـلى برنامـج حـواري ممـل، نصـح أخـاه بأنـه يذهـب لغرفـة أمـه للمذاكـرة بهـا والنـوم إن أراد حتـى لايتأثـر بصـوت التلفـاز، أحـس بإحبـاط حنيـما قـال لـه أخيـه الأصغـر أنـا أحـب المذاكـرة أمـام التلفـاز، قـام بـدور الناصـح الأمـين

: أنت فى ثانوية عامة ولازم تهتم وتذاكر كويس ،

قال له بابتسامة خبيثة

: وبعد ما أحصل على الثانوية والكلية، أعمل إيه

شعر بالضيق من رد أخيه لكنه أجاب على مضض

:ربما يكون حظك أحسن من حظي

كانـت عقـارب السـاعة تشـير للتاسـعة، الوقـت بـدأ يتحرك بسرعـة مذهلـة لكنـه لايـزال مسـتيقظا وعينيـه مفنجلتـين يجادلـه ويحـاوره، تشـاغل عنـه بالبرنامـج الحـواري، مـدد رجليـه عـلى الكنبـة، وخلـع نظارتـه وأسـند رأسـه للحائـط، وخـز خفيـف فى الكتـف، المتحـاوران ينتقـد كل منهـما الأخـر، الوقـت يمـر سريعـا كلـما نظـر إلى أخيـه الـذى لم يـزل يسـتذكر

دروسه، والبرنامج الحوارى البارد الباهت بلا معنى، يمر بطيئا وكئيبا، منذ مطلع الفجر وهو ينتظر كان يحس ويشعر بأن هذا اليوم غير عادي فى حياته.

بدأ المشهد من لحظة أن تقمص شخصية البطل، وهى تهرول نحو باب عشته خائفة مرعوبة والدم يسيل من مقدمة فستانها الذى مزق من كل جانب، لقد اغتصبها هذا الحيوان المفترس فى الطريق أكلها، مزق براءتها دون رحمة، ساعات مرت يضمد جراحها ويطمئنها غسلت الدم النازف وخلعت فستانها، لفها فى ملاءة سرير، نامت نوما عميقا، تقلبت أمامه دار فى الغرفة، اشتعلت الرغبة داخله، مسح شعرها قبلها، مرر يديه بين ثديها، شم رائحتها، شاهد باقي أثار دم فض بكارتهاعلى قميص نومها، غطاها ثم مضى إلى الكنبة ونام .

لا أحد غيرهما فى الدار، نام الأخ الأصغر، والآم لن تأتى من عند ابنتها قبل الغد، هى اللحظة، كان الليل ساخنا جدا، استيقظت، أحست بوجوده، اقترب منها، مرت ساعات طويلة كأنها أيام تحكي له ما حدث حتى أخذها فى حضنه، شعر بدفء أنفاسها، شعرت معه بالأمان، ضمها إليه أكثر فأكثر، مص شفتيها الغليظتين، سحب لسانها إلى فمه اعتصرها، لون الدم على قميصها أشعل

رغبتـه، ذاب فيهـا وذابـت فيـه، تقلـب بهـا عـلى السريـر، حتـى سـقط عـلى الأرض، كان صـوت نهايـة الإرسـال عـلى الشاشـة حـين فتـح عينيـه، بينـما كان الأخ الأصغـر نائـما عـلى الكـرسي المقابـل .

تمت

٢٠٠٢/٣/٦

المؤلف فى سطور

إبراهيم خضارى عمار

مواليد محافظة قنا – قرية القلعة

مقيم بالقاهرة – محافظة الجيزة

خريج كلية دار العلوم –ج القاهرة

معلم وكاتب صحفى

رئيس تحرير مجلة قادح زناد الحروف

عضو فى العديد من الصالونات الثقافية

نشرت له العديد من الأعمال الإبداعية

فى جرائد ومجلات عربية

أخبارالأدب – نصف الدنيا – حريتى الجمهورية – الغد – الأخبار– مصر الفتاة – آفاق عربية – المجلة العربية – اليوم الدولى

صدر له

أزاهير جنوبية – عمل مشترك ١٩٩٧

تحت الطبع

رواية البارود

مسرحية باراباس

مجموعة قصصية (أعياد اليتامى)

الفهرس

القفـز مـن نافـذة العالـم.....٥
زينـب الخطاطـة.....٩
المؤتمـر.....٢١
فَلَاِلـك.....٣٥
حسـناء.....٤٢
مكتبة الاسـكندرية.....٥٦
أن تجلس فى الصف الاول.....٦٦
أشـياء تافهـة.....٧٧
البقاء لله.....٨٤
علاقـات رقميـة.....٩٩
رغبة مكبوتـة.....١٠٢
المؤلف فى سـطور.....١١٠